رشيد الضعيف

ما رأت زينة وما لم ترَ

رواية

دار الساقي

رشيد الضعيف
ما رأت زينة
وما لم ترَ
رواية
دار الساقي

ما رأت زينة وما لم ترَ

رشيد الضعيف

ما رأت زينة وما لم ترَ

دار الساقي

هذا الكتاب مُجاز لمتعتك الشخصية فقط. لا يمكن إعادة بيعه أو إعطاؤه لأشخاص آخرين. إذا كنت مهتمّاَ بمشاركة هذا الكتاب مع شخصٍ آخر، الرجاء شراء نسخة إضافيّة لكل شخص. وإذا كنتَ تقرأ هذا الكتاب ولم تشتره، أو إذا لم تشتره لاستخدامك الشخصي، الرجاء شراء نسختك الخاصّة. شكراً لاحترامك عمل المؤلّف الشاق.

©دار الساقي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الورقية، 2024

الطبعة الإلكترونية، 2024

ISBN-978-614-03-0331-7

Published 2024 by Dar Al Saqi

Dar Al Saqi

Gable House, 18-24 Turnham Green Terrace, London W4 1QP

T: +44 (0) 20 7221 9347

e-mail: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني

www.daralsaqi.com

www.saqibooks.com

@DarAlSaqi دار الساقي Dar Al Saqi Dar Al Saqi

١

على بلكون شقّة أنيقة

الساعة الآن نحوَ الرابعة بعد الظهر في بيروت، يشير إلى ذلك مَيَلانُ الشمس قليلاً نحو المغيب فوق البحر، وكذلك ميلان الظلال في المدينة.

زينة، الخمسينيّة من العمر، في ثياب الخدمة، تسقي الزرع على البلكون المطلّ على منظر بانورامي هائل: المرفأ في الوسط ما بين الجهتين الجنوبيّة والشماليّة من بيروت وضواحيها.

وقفتْ زينة بعد أن سَقَت الزرع، عند حرف الشرفة وتأمّلت هذه المدينة.

زينة تتأمّل مدينتَها كلّ يوم، وتندهش. وذلك منذ أن انتقل مخدوماها، الأستاذ فيصل وزوجتُه الستّ سوسن، إلى هذه الشقّة في مبنى عالٍ كالبرج، في منطقة الأشرفيّة.

بيروت مدينة تضجّ بالسيّارات، وتغرق في فوضى لا تخضع لقاعدة، لكنّها فوضى محكومةٌ بمنطق باطن لا يُدركه بالحدس إلّا المقيمون طويلاً فيها.

البحر يحضن المرفأ ويحضن بيروت. وبيروت ناعمة بإقامتها في قلب البحر. البحر وبيروت في وئام.

لا تصل الأصوات فُرادى إلى البلكون، حيث تقف زينة مسحورةً. ما يصل هو ضجيج عامّ تنحلّ فيه الأصوات المفردة لتصبح نوعاً واحداً من هدير مُبهَم. وهذا الهدير المبهم الذي يتناهى إلى البلكون، يشبه هدير البحر المبهم في أعماق الليل.

بيروت مدينة بحريّةٌ هائلة. هذا شعور ساحر، تعيشه زينة كلّما أَنْهَتْ عملَها وخرجتْ إلى الشرفة تتفقّد الزرع عليها. ويتضاعف شعورُها بالسحر حين تَقْصُر النهارات، ويحلّ الليلُ باكراً، ويمتزج البحر بالعتمة وتتبدّى في هذا المزيج ظلالٌ تشبه الذين ماتوا.

بماذا تتأمّلين؟ سألتْها الستّ سوسن مرّةً، وقد حضرت، كعادتها من وقت لآخر، لتُسرِّحَ نظرها وتستسلم لخيالها: – وين سارحة؟

أتأمّل زوجي! أجابتها زينة. إنّي أرى ظلّه. الذين يموتون غرقاً في البحر ولا يُعثر على جثثهم يتحوّلون إلى ظلال هائمة فوق المياه، يلمعون عندما تحلّ العتمة. قالتها كذلك بلهجتها الخاصّة التي حملتها معها من ضيعتها الجَبَلِيَّة: – عم أتفرّج عَ جوزي عم يتخايل قبالي. الموتى ما بيموتوا يا ستّ سوسن. إلّي بيغرقوا وبيموتوا بالبحر وبيختفوا بيطلع شَبَحُنْ فوق المَي.

– بعدِك ما نْسِيتِيه؟

كيف تنساه؟ كيف تنسى زينة زوجها الشاب وقد كانت حبلى بابنتها يومَ غَرِقَت الباخرة التي كان مسافراً على متنها.

لو أنّه لم يغرق في البحر، أجابتها زينة، لَكُنّا اليومَ معاً في أميركا. كلّ يوم في هذه الأزمة التي نعاني منها أحلم بأنّ زوجي وصل بسلام، وشرع بالعمل، واستدعاني، وبدأنا حياةً جديدةً.

– الزمن غدّار يا ستّ سوسن! الزمن غدّار! لو ما غرقت هالباخرة بجوزي كنّا اليوم بألف خير. كانت كبرت عيلتنا.

وتأمّلت الستّ سوسن مليّاً في البحر وهي تستمع إلى كلام زينة، وبعد لحظات طويلة من التأمّل قالت لزينة إنّها رأت، أمس، ما تراه أحياناً حين تخرج إلى البلكون في الليل وتتأمّل البحر، رأت بحّارةً ينزلون إلى الشاطئ من مراكب بمجاذيف، ويتوزّعون مجموعاتٍ صغيرةً ويتخلّلون المدينة ويختفون فيها.

– شفتهم عم يفوتوا بهالشوارع وعم ينتشروا بسرعة، فِرَقْ فِرَق. وجوهن كلّها بتشبه بعضها، وكلّن لابسين متل بعضهن. ما فيكي تميّزي واحد عن التاني.

وقالت إنّها انتظرت أن يعودوا إلى البحر، لكنّهم، كما كلّ مرّة، لا يعودون.

وقالت إنّها بعد أن تفيق من نومها في اليوم التالي تذهب إلى الشرفة لترى ما حلّ بالمراكب، فلا ترى سوى بقايا آثار في مكان رُسُوِّها.

ثمّ تساءلتْ: هل يجيئون من أزمنة قديمة إلى أيّامنا هذه عن طريق بحرنا وشواطئنا؟ هل يشتاقون إلى مدينتنا؟ هل أنّ بيروت خالدةٌ حيّةٌ في ذاكرة الموتى؟

زينة مهتمّةٌ دائماً بهذا الذي تقوله مخدومتُها، فزوجها لا شكّ قد يكون بين هؤلاء الذين ينزلون من المراكب، لكنّها اليوم، في الرابع من آب، كحالها منذ مدّة، يوقظها من هذا السحر هَمُّ ابنتِها بُشرى، التي توقّفت عن الذهاب إلى الجامعة، وبدأت البحث عن عمل.

لم يعد ما تكسِبه زينة يكفي لتُعيل به نفسَها وابنتَها وأختَها السّتّينيّةَ المتعثّرة بصحّتها.

بشرى في التاسعة عشرة من عمرها، وفي سنتها الجامعيّة الثانية.

بشرى لا تفكّر في الزواج، رغم إدراكها بأنّها إذا لم تجد عملاً فستبقى عالةً على والدتها.

بشرى فتاة جميلة، تحبّ جسمها كثيراً، ويزداد هذا الحبّ قوّةً في الصيف، حين تشعر بنفسها كأنّها فراشة، فتعرّض نفسها للشمس لا لتَسْمَرّ كثيراً، بل لكي تترك الشمسُ على بَشَرَتِها أثرَها الجميل. لذلك هي تختصر الشتاءَ، وتستعجل الصيفَ الذي تقرّرُ قدومَه بنفسها حين يشتاق جسدها إلى حرّ الشمس.

إنّ هذا السلوكَ يُؤرّق زينة التي تجد نفسَها، مهما حاولت، عاجزةً عن تغييره.

وتتساءل زينة، وهي على شرفة مخدومتها، كيف ستجد بشرى عملاً وهي تمضي نهارها وليلها أمام التلفزيون، تتابع المسلسلات التي لا نهاية لها.

ليتَها تستطيع الحصول على فيزا لبلد قد عطف عليه الخالق، يعيش فيه الناس كما يليق بالناس. ليتها تتوفّق بعريس يُكرِمها ويُعزّها.

ثمّ تعود زينة، بعد أن يحضرها همُّ ابنتها، إلى المطبخ، لتُنهي يومَ عملها.

٢

زينة في المطبخ

تُنهي زينة نهارها بترتيب المطبخ، ومن آخر الأعمال التي تقوم بها، غسلُ الفنجانَيْن اللذَين شَرِبَ بهما مخدوماها، الأستاذ فيصل وزوجتُه الستّ سوسن، شايَ العصر، ووَضْعُهما في مكانهما على أحد الرفوف، لكنّ فنجان الستّ سوسن ينزلق من مكانه ويقع، ويتحطّم، وتنتشر أجزاؤه على أرض المطبخ، ومن الأجزاء ما يختفي تحت كلّ ما ارتفع عن الأرض ولو بضعة سنتيمترات. وكان على زينة الآنَ، فوراً، أن تلملم هذه الشظايا بعناية فائقة، لأنّها شديدة الأذى إذا ما انغرزت في رِجْلٍ أو في يد.

أرجعت زينة سبب هذا الحادث إلى الهمّ الذي بات يلازمها، منذ أن تركت بشرى الجامعة، بعد انهيار الليرة، وبعد أن أمسى العيشُ الكريم مستحيلاً، حتّى على الذين لا يَشكون من حرمان.

تشاءمت زينة من هذا الحادث البسيط، بخلاف الستّ سوسن التي حضرت فورَ أن سمعت صوت تحطّم الفنجان، وقالت معلِّقةً على الأسف والغضب البادِيَيْن على وجه زينة:

– لا تزعلي، انكسر الشرّ.

لكنّ الشرّ لم ينكسر عند زينة، بل إنّ ما حدث نذير به.

– لَيْش معصّبة يا زينة؟

– بشرى بنتي تركت الجامعة وعم تفتّش عَ شغل.

لم تسألها الستّ سوسن عن السبب، ولا علّقت بشيء، بل سكتت وانسحبت إلى الصالون من جديد.

الستّ سوسن تعرف الأسباب جميعاً، وقد أحبَّتْ زينة وتبنّتها حتى أصبحت كأنّها من العائلة، وساعدتْها كثيراً في ثمن السيّارة التي اشترتها، وهي

تساعدها على الدوام، لكنّها لا تجد نفسها مستعدّةً لدفع تكاليف تعليم ابنتها الجامعي.

وقد ودَّت زينة أن تردّ على ما تفكّر فيه الستّ سوسن، في أنّ الجامعة اللبنانيّة مجّانيّة، وودّت أن تقول لها إنّ تكاليف التسجيل والنقل والكتب وما إلى ذلك، أصبحت تفوق طاقتها، لكنّها فضّلت السكوت حتّى لا تبدو أنّها تستدرّ عطفها.

ثمّ تضع زينة حبّة دواء وكوباً من الماء، على صينيّة، وتضع الكِمامة، وتخرج إلى الصّالون حيث يجلس مخدوماها أمام تلفزيون بشاشة واسعة جدّاً، كلٌّ على كرسيّ مريح.

الكِمامة تغطّي فَمَ زينة فقط، لا أنفَها.

٣

في الصالون

زينة في الصالون تقدّم الحبّة وكوب الماء إلى الأستاذ فيصل، وتحاول في الوقت نفسه أن تُبقي بينهما ما أمكن من مسافة. هذه تعليمات الأستاذ فيصل والستّ سوسن. يجب احترام "التباعد الاجتماعي" الذي توصي به الإذاعاتُ والتلفزيونات والجرائد والمجلّات، وكلّ ما يُنشَر ويُذاع. التباعد بين الناس هو الطريق الوحيد للخلاص من هذا الوباء المستحكِم، بانتظار أن تُثمر جهود المختبرات في أوروبّا، وفي أميركا بخاصّة، عن لَقاح فعّال يبطل أثره الخطير على مصائر الأفراد واقتصادات الدول على السواء.

"تفضّل"، قالت زينة.

تناول الأستاذ فيصل دواءَه وشكر زينة: "يِسْلَموا".

"غطّي منخارك بالكمّامة يا زينة"، قالت الستّ سوسن.

الستّ سوسن خائفة جداً من العدوى بكورونا. خائفة على زوجها وعلى نفسها بالتساوي، بل ربّما هي خائفة على زوجها أكثر، وهي لا تتعب من تذكير زينة بضرورة رفع الكِمامة لتغطّي الأنف. وزينة تعمل بما تمليه عليها الستّ سوسن، لكنّ الخوف من العدوى لم يتمكّن منها كما تمكّن من مخدومتها، لذلك هي تُنزلها عن الأنف أحياناً بلا انتباه، لكنّها تنزلها أيضاً إلى العُنُق، وأحياناً لا تضعها.

٤

زينة تبدّل ثيابها

لا تغلق زينة باب المطبخ، طوال نهار عملها، بل تُبقيه مفتوحاً حتّى تسمع الصوت إذا ما نُودِيَت، لكنّها تُغلِقه وراءها وتُقفله بالمفتاح حين تستعدّ للخروج بعد انتهاء دوام العمل. تريد زينة أن تغيّر ملابسَها بأمان، حتّى وإن كان مخدوماها الستّ سوسن والأستاذ فيصل بالذات، ولهما من العمر ما لهما، وهما، إلى ذلك، ذروة في الآدميّة والأخلاق الرفيعة، وهي تكنّ لهما احتراماً شديداً، وتعمل عندهما منذ خمس وعشرين سنة، وتحسب نفسها جزءاً من العائلة، وهما يحسبانها كذلك. وقد اهتمّت بتربية ابنهما الوحيد، جاد، الذي يعمل الآن في سان فرنسيسكو في أميركا. اهتمّت به كما اهتمّت به والدته، وأكثر ممّا اهتمّ به والده بالتأكيد. وجاد يسمّيها الحليفة، لأنّها تتواطأ معه، وتسمح له بأكل الممنوعات، وتخفي على الوالدَين ما يخالف به أوامرهما.

تعود زينة إلى المطبخ، وتستبدل بثياب العمل ثيابَ الخارج، وتتناول من جزدانها مفتاح سيّارتها، وتخرج مغلِقةً الباب فتُسمِع الستّ سوسن صوت إغلاقه، إيذاناً بخروجها، لأنّ من عادة الستّ سوسن أن تكلّف زينة، وهي خارجة، بمهامّ عديدة للغد، من بينها طبعاً شراءُ ما تحتاج إليه من الخضار بخاصّة.

٥

في الصالون مرّةً أخرى

حين خرجت زينة إلى الصالون، كانت الستّ سوسن كالعادة في انتظارها، وبيدها المحفظة التي تضع فيها المال.

ودّعت زينة الست سوسن مستأذنةً: – بخاطرك.

وأضافت أنّها ستأتي غداً بما يلزم من الخضار، وبالبقدونس أيضاً، حتى يكون بإمكانها تحضير "التبّولة" إذا ما أراد الأستاذ ذلك.

بقيت واقفةً وهي تقول ذلك، تنتظر أن تُخرِج مخدومتُها ما يلزم من الأوراق النقديّة من محفظتها. ثمّ سألتْها الستّ سوسن كم ليرة يلزمها: – أَدّيش لازِمْلِكْ؟

لكنّ زينة لا تعرف كم يلزمها، فالليرة تتراجع باستمرار، والأسعار ترتفع بين يوم وآخر، بل بين ساعة وأخرى، فالسوق شديدة التوتّر، ولا تستقرّ على حال.

"ما بعرف يا ست سوسن"، أجابتها زينة، "كل يوم السعر شي. الجمعة الماضية علبة اللبنة كانت بسبعة آلاف ليرة، اليوم بأربعة وعشرين. هالمحلّات بتكسّر عالدولار".

بعد أن ناولَتْ الستّ سوسن زينة عدداً من الأوراق النقديّة، طلبت منها أن تعدّها، فعدّتها، وعادت إلى نفسها تحسب ما يلزمها من أغراض، وتقابله بما بين يديها. ثمّ قالت: "انشالله يكفوا".

"اشتري فِيُنْ اللازم بسّ"، أجابتها الست سوسن.

ثم ودّعتها، قائلةً لها: "الله معك. يعطيكي العافية. خلّيكي منتبهة يا زينة".

فأجابتها زينة:

"ما توصّي حريص!".

وعدَّلَت في وضعيّة كِمامَتها حتّى تخفي أنفها جيّداً.

ثمّ التفتت إلى الأستاذ فيصل، واستأذنته قائلةً: ”بخاطرك أستاذ“.
”الله معِك“، أجابَها.

٦

زينة تنزل بالمصعد

طلبت زينة المصعد وهي تفكّر في ابنتها، وفي هذه الأثناء أرادت أن تتصل بها، فمدّت يدها إلى جزدانها لتتناول منه الهاتف لكنّها لم تجده، فعادت ورنّت جرس الباب، ففتحت لها الست سوسن. قالت لها زينة: "نسيت التلفون".

وأضافت معتذرةً:

"عم إخرَف".

فآنستها الستّ سوسن بابتسامة، وواستها بقولها إنّ الوضع الذي نمرّ فيه هذه الأيّام يُفقد الإنسان عقله، ولا يعود قادراً على التركيز على شيء.

– هالأوضاع ما بتخلّي عقل بالإنسان، بلدنا عم ينهار قدّام عينَينا.

كان المصعد قد وصل عندما عادت زينة، فدخلته وهي تتّصل بابنتها. لم تنتظر أن تبلغ الطابق الأرضي، مع أنّها تعرف أنّ المكالمة داخل قفص المصعد، غالباً ما تكون متقطّعةً ومضطربة. لا تقوى على الانتظار، تريد أن تعرف ما تفعله ابنتُها التي تشغل بالها كثيراً.

لم تُجب بشرى على الاتّصال.

"متل العادة!" قالت وهي تخرج من مدخل البناية وتتّجه نحو سيّارتها.

بشرى، تتحاشى الردّ على والدتها حتّى لا تتعرّض للانتقاد. لا يمكن لها أن تتبادل بضع كلمات مع والدتها، هذه الأيّام، بلا أن يتحوّل هذا التبادلُ إلى لوم ثمّ إلى شجار.

"بتتحاشاني لأنّها عارفة حالها مغلّطة. مش هاممها بهالأيّام إلّا تلبس قصير. لو فيها تلبس مايوه بالشارع ما بتقول لأ. مبسوطة بحالها".

٧

زينة في الخارج

خرجت زينة من البناية حيث تعمل، واتّجهت نحو سيّارتها الـ"كيا" الصغيرة المتوقّفة محاذاةَ الرصيف، وقبل أن تصعد إليها ألقتْ نظرةً على المكان. حركة السير بطيئة جدّاً في الشارع المؤدّي إلى ما يسمّيه الناس "مار مخايل"، والناس في يوم عادي، في بيروت المنشغلة بتدبير أمورها. بيروت التي تعاني بسبب الانهيار الاقتصادي والمالي المريع. لكنّ حرّ آب ينعش الأمل مهما تكاثفت فيه رطوبة الهواء، فالأجساد الشابّةُ المبتهجة بالشمس والفخورةُ بذاتها، تخلخِل يقين المتشائمين، وتوحي بأنّ المستقبل ليس وَهْماً.

وقبل أن تدير زينة المحرّك، اتّصلت بأختها وقالت لها إنّها انطَلَقتْ لكنّها ستتأخّر لتصل، لأنّ السير مزدحم، وحركة السيّارات بطيئة جدّاً:

– ماري، أنا مشيت، يَلّا بدّي شي تلت ساعة يمكن، أو أكتر، لأنّو في عجقة كتير.

ثم سألَتْ قبل أن تُنهي الاتّصال:

– بشرى بالبيت؟

فاحتارت ماري بما تُجيبها، لأنّ بشرى ليست في البيت. وهي ما زالت غائبةً عنه منذ ما قبل الظهر. فإذا ما باحت لها ماري بهذه الحقيقة فإنّ شِجاراً سيقع بين الاثنتين، بشرى ووالدتها، لذلك تداركت الموقف وأجابت بأنّ بشرى أمضَتْ النهار كلّه في البيت، وأنّها خرجت، منذ قليل فقط، لإجراء مقابلة عمل، عند مزيِّن نسائي يبحث عن عاملةٍ مساعِدة:

"حرام، طول النهار كانت بالبيت".

قالت ماري ذلك متوقّعةً ومتمنّيةً أن تعود بشرى قبل وصول والدتها، لأنّ الناطور أخبرها بأنّ "كهربا الدولة" ستُعطى للحيّ من الساعة الرابعة حتّى الخامسة.

– أكيد بتكون برّا عم تعرض جمالها!

– هلّأ ضهرت من شوي، قال في كوافير بدّو بنت تساعدو.

ما إن أنهت ماري المكالمة حتّى اتصلت فوراً ببشرى وأخبرتها بأنّ والدتها متوّترة وبأنّها غاضبة عليها:

– تعي إمِّك معصّبة عليكي.

– أيمتى ما كانت معصّبة عليي؟ إجت الكهربا؟

– الكهربا إجت من شوَي.

وأوصت بشرى خالتها بأن تشغّل قنّينة الماء الساخن فوراً، لأنّ عليها أن تستحمّ قبل أن تذهب إلى موعدها لإجراء المقابلة، في صالون التجميل في منطقة الأشرفيّة.

تشترك زينة في المولّد الكهربائي للحيّ، بخمسة "أمبيرات" فقط، وهذا لا يكفي لتشغيل سخّانة الماء. لذلك هي تنتظر أن يُمدَّ الحيّ بِـ"كهربا الدولة" حتّى تستطيع تشغيله:

"الخمسة أمبير ما بتمَشّي شي! طلعت ريحتنا الله يطلِّع ريحتن هالوصّلونا لهون. أيمتى رح نشترك بعشرة أمبير تا نقدر نتحمّم ساعة البدنا؟".

"لمّا بتبلّشي الشغل"، أجابتها خالتُها.

"ذَلّونا، الله يذلّهن!"، قالت بصوت عالٍ جدّاً كأنّها تريد أن يسمعها كلُّ من في الشارع حولَها.

٨

تصل بشرى، تستحمّ وتخرج

عند بشرى، نظافة جسدها، عبادةٌ حقّاً! غَسْلُ جسدها بالماء يشعرها بسعادة قصوى. يثير فيها شعوراً بالخفّة، بأنّها تحرّرت من الجاذبيّة، بأنّها تمشي فوق سطح الأرض ببضعة سنتيمترات. يشعرها بأنّها بنت العصر، وبنت هذه الأيّام وبنت الأيّام القادمة. يشعرها بالفخر، وبأنّها تساوي بالأهمّية كلّ أغنياء العالم، وتساوي بالجمال كلّ ملكات العالم.

لا ينقصها شيء بعد أن تستحمّ. وتخرج بعد الحمّام لا تحسد أحداً ولا تتمنّى أن تكون غير نفسها.

لكنّ التقنين، في هذه الأيّام، قاسٍ جدّاً، فالكهرباء تُعطى ساعةً واحدة فقط قبل الظهر وساعة بعده، لذلك تعاني بشرى الكثير، وتُوَقِّع نهارَها على أساس هذه الساعة التي في خلالها تسخّن الماء، وتستحمّ وتنشّف شعرها بالسشوار، وتكوي ثيابها، وتشغّل الغسّالة...

وأحياناً يستمرّ التقنين التامّ يوماً كاملاً، أو يومين، فتشعر بشرى بالذلّ، وتُصاب بالكآبة.

٩

زينة تتصل من جديد

زحمة السير خانقة، وزينة تتقدّم ببطء شديد، ويكاد ينفد صبرها. فاتّصلت بأختها لتؤكّد لها أنّها ستتأخّر.

"ماري العجقة ما بتنطاق".

وزينة داريةٌ بحبّ ابنتها للنظافة. وتحبّ ذلك فيها، وتفخر به، وتعرف أنّ ابنتها إذا لم تستطع أن تستحمّ تُصاب بالهلع ثم تكتئب. لذلك سألت أختها ماري إذا كانت مياه الحنفيّة متوفّرة.

"آ، في مَيْ، وهلّأ إجت الكهربا"، أجابت ماري.

فاطمأنّت زينة، وأقفلت الهاتف مُعِدّةً نفسَها للصبر في هذه الزحمة القاتلة، والطقسِ الحارّ، والرطوبة العالية.

شهر آب قلب الصيف.

لكنّ الزحمة، رغم مساوئها، تسمح لزينة بالانتباه إلى كثير من الأمور التي توجد في الشارع والتي لا تلفت انتباهها عندما يكون السير ميسَّراً.

وأوّل ما لفت انتباهها هو أنّ نسبة الأعمار الشابّة تزداد بين الناس. صبايا وشباب في لباس مودرن. مقاهي الأرصفة عامرة بالروّاد. صبايا في لباسهنّ الصيفي الخفيف. أَثَرُ شمس البحر على أجسادهنّ بادٍ بوضوح. وكذلك على أجساد الشباب الملتحِين بغالبيّتهم.

لن تفاجَأ زينة إذا وقعت عينُها على ابنتها بين هؤلاء الشباب.

على الطاولات قناني البيرة ومشروبات من كلّ الأنواع. لا أحد في مقهى يضع كِمامة. كأنّ وباء كورونا، في منطقة "مار مخايل"، هو خبرٌ من زمان غابر.

لفتت انتباهَها ممرضّةٌ شابّة، تقف أمام باب المستشفى، كأنّها أنهت نهارَ عملها وتنتظر والدها أو أحداً ما يعيدها إلى البيت.

إنّ رؤية هذه الفتاة جعلها تتساءل هل ترضى بشرى بأن تعمل ممرضّة. لكنّ صوت سيّارة إسعاف، ورؤية المعنيين يهرعون إلى السيّارة، قطعا عليها انسياب أفكارها.

زينة تمرُّ كلّ يوم بهذه المشاهد، لكنّ حركة السير لا تسمح لها دائماً بالتأمّل. وكلّما تأمّلت حضرت في بالها بشرى. هل ستُكرمها ابنتُها بحفيد؟ ليس في الأفق ما يوحي بذلك. هذا ما ورد في بالها عندما مرّت أمام سيّارتها امرأة شابّة تمسك بيدها ابنها الذي لا يتعدّى عمره السنوات الثلاث.

"يَلّا يا ماما بسرعة!".

كانت تقول الأمّ الشابّة لطفلها وهي تجتاز به الطريق إلى الرصيف المقابل.

"يَلّا ماما، لازم نشهّل، ميشان تتحمّم قبل ما يِجي البابا من الشغل".

وتساءلت زينة وهي تمرّ قرب مقهى على رصيفها طاولة حولها ثلاث صبايا وصبيّ شابّ واحد، وعليها عددٌ لم تستطع إحصاءَه من قناني البيرة الفارغة، وكبّاية ليموناضا واحدة، تساءلت إذا كانت بطونهم تتسع لهذه الكمّية من البيرة: "وين بيحطّوهن؟". قالت لنفسها.

وتعجّبت إذ تشرب البنات البيرة كما يشربها الشباب الذكور وأكثر.

"البنات بهالإيّام بيشربوا أكتر من الشباب".

أمّا النادلة الشابّة التي لفَتَهَا قوامُها، فتمنّت أن ترى وجهها قبل أن يُسرع السير وتضطر لتخطّيها. ثمّ إنّ النادلة أدارت لها وجهَها وهي تضع قنينة بيرة أمام شابّ ببنطلون شورت، مأخوذ بهاتفه، وعندما رفع عينَه عن تلفونه ورأى القنّينة، تناولها ولحق بالنادلة إلى الداخل، وناولها القنّينة، وتبادل معها الكلام لحظةً، أعطته بعدها كأس نبيذ أبيض. ثمّ عاد إلى طاولته.

أَعْجَبَ زينة وجهُ النادلة كثيراً وقالت في صيغة عتاب:

"هالوجه الحلو وهالقامة، مَلِك بيتمنّى يتزوّجك ويعيّشِك عَ حسابو".

ولفتت انتباهَ زينة كثيراً، فتاتان في عمر ابنتها، توأمتان بالتأكيد، لأنّهما تشبهان بعضهما بعضاً كما تشبه نقطةُ ماء أختَها. وما لفت نظرها فيهما، أنّ إحداهما محجّبة والأخرى تلبَس على الموضة، عارية البطن، وبلا كمّين.

"سبحان الله!"، تمتمت، "البطن بستان!".

ثمّ اختارتا بعد تشاور فيما بينهما، طاولة في مقهى، على الرصيف، وجلستا إليها. أرادت زينة حينئذ معرفة ما ستطلبان. هل ستأكلان أم ستشربان؟ وماذا ستشربان؟ لكنّ السير أجبرها على التقدّم. وكادت أن تؤلمها رقبتُها، وأن ترتطم بالسيّارة التي أمامها، وهي تحاول النظر إلى الوراء حتى تعرف.

ما من مرّة تمرّ زينة بطاولة، إلّا وتدفعها حشريّتها إلى معرفة ما عليها من مشروبات، أهي كحوليّة أم بلا كحول، فتمطّ رقبتها لترى، وتزداد هذه الحشريّة إذا كان بين المتحلّقين حول الطاولة محجّبات، لكنّ ابنتها هي الأساس، فهل كلّ هذا الجيل يشرب الكحول أم أنّ أكثر الشباب لا يتناوله؟ تريد زينة أن تطمئنّ إلى ابنتها، تخاف عليها أن تشرب، وتطمئنّ حين تراها مع صديقتها المحجّبة زينب.

"الله يحميكي يا بنتي من الشرب. يا ريت يا بشرى بتضلّي مع زينب".

أمّا عمّال ترميم واجهة هذا المبنى الذي هي أمامه الآن، فهم يتقدّمون بسرعة. لم يمضِ على بداية الورشة هذه شهر بعد، ولا شكّ أنّ شهراً آخر سوف يكون كافياً لإنجاز العمل. لكن ما "المصلحة" التي ستفتح هنا يا ترى؟ مطعم بالتأكيد، أو مقهى، أو علبة ليل. هذا الشارع تحوّل نهائيّاً من محالّ تجاريّة ومهن حرّة إلى شارع سياحيّ، يهجره سكّانه لهذا السبب، إذ قد منعهم من النوم صَخَبُ السهر حتى الفجر.

كانت زينة تلتقي دائماً متظاهرين يحملون مخدّاتهم، اعتراضاً على الضجيج الذي يمنعهم من النوم، لكنّها الآن لم تعد ترى شيئاً من هذا. كأنّهم دُجّنوا أو هجّرهم عجزُهم عن تغيير المنحى.

أمّا المشهد الوحيد المستجدّ هذه المرّة فهو شابّ، في ثياب لا تشبه ثياباً، يرسم حروفاً غريبةً عجيبةً على حائط. أثار حشريّتها هذا الشاب، فأبطأت أكثر ممّا يسمح به السير.

"ماذا يرسم هذا الرّجل؟" سألت أحدَ المارّة الشباب الذي وقف يتفرّج: "غرافيتي"، أجابها.

ربّما سمعتْ سابقاً بهذه الكلمة، لكنّها ليست متأكّدة، ولا تعرف معناها.

لكنّ السيّارة التي خلفها زمّرت بعصبيّة، فانتبهت زينة وأسرعت فجأةً حتّى ارتطمت بالسيّارة التي أمامها، فاضطربت كثيراً، خاصّةً أنّ السائق نزل من سيّارته غاضباً جدّاً ليتفحّص موضع الصدمة، ثم اقترب من زينة وقال لها غاضباً ومؤنِّباً: "وين عقلِك؟".

لم تجب زينة. لكنّها تمتمت لنفسها:

"الله يسترنا من هالنهار!".

لم يكتفِ السائق المتأذّي بصمت زينة بل قال لها إنّ علَيها أن تسدّد أجر تصليح السيّارة فوراً. وما زاد الطّين بلّة أنّ السيّارة ليست خصوصيّة، بل عموميّة بنمرة حمراء، ما يعني أنّ سائقها أكثر عَوَزاً منها، وأنّه قد يكون استأجرها من صاحبها.

"هيدي السيّارة مش ملكي، أنا مستأجرها. لازم إدفع إجرتها كلّ يوم. يعني أنا عليّي إدفع التصليح".

وزينة نفسها لم تؤمّن سيّارتها، لذلك عليها أن تسدّد تكاليف تصليح سيّارة التاكسي وتكاليف تصليح سيّارتها بنفسها.

"شو هالمصيبة!"، قالت زينة وهي تنزل من سيّارتها لتتفحّص الأضرار.

وبعد أن تفحّصت الأضرار اطمأنَّت لأنّها طفيفة جدّاً، فصرخت بالسائق وبالغت بالصراخ مبتغيةً إرهابه. صرخت قائلةً: "سيّارتك ما بها شي! بدّك تاكلّي راسي؟".

وفي هذه الأثناء تعاظمت أصوات الزمامير وكادت أن تصمّ آذان الناس، حتّى إنّ بعض الساكنين أطلّوا من نوافذهم في الطوابق العليا ليستطلعوا ما يجري. وهذا ما أحرج السائق واضطرّه إلى الصعود إلى سيّارته ومتابَعة سيره.

نجت زينة من تجربة كبرى، أي تسديد التكاليف، لكنّها لم تشعر بالراحة لأنّها رأت في هذا الحادث نذير شؤم.

"الله ينجّينا من هالنهار".

لقد تراءى لها زوجها ظلّاً فوق مياه البحر، وكسرت فنجان الشاي الخاصّ بالستّ سوسن، وها هي الآن عالقة في زحمة سير ليس لها مثيل، وأخيراً... أن تفقد تركيزها وترتطم بسيّارة أخرى، هذا لم يحدث لها. والسبب هو لا شكّ

ابنتها التي تشغَل بالَها كثيراً. أو أنّ كلّ هذا الذي يجري لها هو نذير بكارثة آتية. فاتصلت بأختها لتروي لها أنّ الله غاضب عليها وأنّه قد أعمى قلبَها: – الله عامِيلِي قلبي اليوم.

ماري:

– شو في؟

– طْرَقت سيّارة، ونزل الشوفير متل المجنون، قال بدّو ياني صلّحلو، وهيّي إذا ما قرّبتي منها كتير ما بتبيّن.

١٠

زينة تفتّش عن موقف

أصعب مرحلة من نهار زينة، هو عندما تبحث عن مكان توقف فيه سيّارتها. عندما وصلت أخيراً قربَ بيتها لم تجد مكاناً، فجالت قليلاً، دون جدوى. أخيراً، أوقفت سيّارتها أوّلَ الشارع، في مكان ممنوع، ولم تترجّل منها، وانتظرت تراقب أن يخلو مكان.

أطفأت محرّك سيّارتها، وأشعلت الراديو. وراحت تنقّله بين الأخبار والأغاني.

وأكثر ما كانت تريد سماع أخباره هو سعر صرف الليرة مقابل الدولار.

قفز سعر صرف الدولار إلى ثمانية آلاف ليرة. فماذا تستطيع أن تشتري بما أعطتها إيّاه الستّ سوسن.

لا تحبّ زينة سماع الأغاني على الراديو، تحبّ مشاهدتها على التلفزيون. لكنّها هذه المرّة وقعت على أغنية زياد الرحباني، "بهاليومين"، فسمعتها وتمتّعت بسماعها.

"فشّت خلقها" هذه الأغنية. قدّمت المذيعة هذه الأغنية بقولها إنّها صدرت من سنين عديدة، وهي ما زالت تنطبق على أوضاعنا اليوم، بل أكثر من ذلك، إنّها اليومَ أكثر صواباً ممّا كانت عليه في السابق.

بدّو ينقطع البنزين بهاليومَين
مش رح ينقطعوا الإجرَين
يمكن رح تنقطع المَي بهاليومين
منرجع منعبّي من العَين...

وأكثر ما أعجبها مقطع يقول فيه:

يمكن رح ينقطع النيدو بهاليومين

إمّك في عندا بزّين.

فانفجرت بالضحك، وراحت تخبط رجليها بالأرض، من شدّة ما شرح لها صدرها هذا المقطع. هي نفسها كانت تُطعم ابنتَها "حليب النيدو" كغالبيّة الأهل. ثمّ انتبهت إلى أنّها تضحك وحدها وأنّ من يراها قد يظنّها جُنّت، فقمعت ضحكتها واضعةً يدها على فمها، وتمنّت لو أنّ بثّها يُعاد مرّةً أخرى.

ساعدتها هذه الأغنية على الانتظار إذ حسّنت مزاجها، لكنّ وقتاً طويلاً مضى ولم يخلُ مكان، فاتصلت بأختها، وأخبرتها بالحال، وطلبت منها أن تأتي لتنتظر معها. وهي دائماً ما تطلب ذلك من أختها.

– آلو ماري، يا أختي ما عم يفضى محلّ... تعي... أنا عَ راس الشارع.

في هذه الأثناء، وبينما كانت مشغولة بالاتصال بأختها، أخلت سيّارة مكانها وأسرعت سيّارة أخرى إلى الرّكن فيه. ثم نزل من السيارة شابّ في أوائل العشرينات، فلعنته زينة، ولعنت أباه من غضبها. أحياناً تبقى زينة في السيّارة ساعةً تنتظر أن يخلو لسيّارتها مكان، بل إنّها انتظرت مرّةً ساعةً ونصفَ الساعة.

"يلعن أبوك، العمى بقلبك منين نبّتت؟"، قالت من دون أن يخرج صوتها من السيّارة.

ثمّ تمنّت أن تستطيع استئجار موقف لسيّارتها بسعر معقول: "يا ريت فيني إستأجر موقف! الموقف بهالإيّام صار مهمّ متل البيت".

بعد دقائق ظهرت ماري، وكانت تمشي بهمّة قد وَهَنَتْ، فتمتمت زينة قائلةً: "لو بتمشي متل ما بتحكي!".

١١

زينة وأختها ماري في السيّارة

ما إنْ استقرّت ماري في السيّارة، حتّى بادرتها زينة بالاستفسار عن بشرى، وعمّا إذا عادت إلى البيت.

"رجعت بشرى؟".

"آ، رجعت"، أجابتها ماري.

كذبت ماري مرّةً أخرى، على أمل أن تعود بشرى بعد قليل، وقبل أن تستطيعا ركن السيّارة.

تعرف زينة أنّ ماري تتواطأ دائماً مع بشرى، وتُخفي عنها ما يثير غضبها.

تكره ماري كثيراً حين يتشاجران، وتتمنّى لو أنّها تختفي فجأةً، حتى لا تشهد هذا الشجار. لذلك تكذب. ثمّ إنّها تعرف أنّ بشرى تتألّم من الوضع الذي وجدت نفسها فيه رغماً عنها: لا جامعة، ولا عمل ولا أفق. وتعلم أنّ هذه ليست حالها وحدها، بل حالة لأكثريّة الساحقة من الشباب. لقد فرغ لبنان من شبابه، فما ذنبها إذاً؟ لذلك أجابت أختها حين قالت: – أكيد أمضت نهارها أمام التلفزيون!

– حرام شو بدّها تعمل؟ ما عم تلاقي شغل.

ثمّ أنهت زينة الكلام على بشرى بقولها بأسى وحسرة إنّها كم تتمنّى لها أن تحصل على فيزا من أيّ سفارة كانت، ولأيّ بلاد كانت من هذه البلدان التي يعيش فيها الناس كالنّاس: "يا ريت فيي دَبّرْلها فيزا على شي بلد الله خَلَقو".

ثمّ أدارت الراديو وشرعت تتسمّع مع أختها الأخبارَ وبرامجَ النقاش السياسي، وتعلّقان من وقت لآخر على ما تسمعان، وهما تراقبان الشارع في الوقت نفسه، في انتظار أن تُخلي سيّارةٌ مكانها.

ثمّ وقعتا، وهما تتسمّعان، على حوار عن الوضع بين عدد من المتحاورين.

"خلّينا نسمع شو عم يقولوا". قالت ماري.

”شو ما سمعنا ما رح نفهم شي“، أجابتها زينة.

قال أحد المحاورين: أموال المودعين في خطر جدّي. البنوك الخاصّة أدانت البنك المركزي من أموال المودِعين، والبنك المركزي أدان الدولة، والمتنفّذون في الدولة صرفوا الأموال على مشاريع وهمية وعلى التوظيف الانتخابي... المنظومة السياسيّة كلّها حزب واحد، يحميها حزبُ الله...

أجابه المحلّل الثاني:

– تحليلك صحيح، لكنّي أخالفك بنقطة واحدة أساسيّة، حزبُ الله لا يحمي هذه المنظومة، بل يتعايش معها.

– وما الفرق؟

لا تتحمّل زينة هذه الفروق اللطيفة في المعاني، فخفّفت صوت الراديو وقالت لأختها: – مبسوطة بهالحكي اللي عم تسمّعينا ياه؟

فغضبت ماري من كلام أختها، وهذا ما دفعها إلى مدّ يدها إلى الرّاديو وإطفائه.

لم تعلّق زينة على غضب ماري، بل تجاهلته وعادت إلى أمورها وإلى الصعوبات التي تعانيها في شراء حاجيات مخدومتها الستّ سوسن، وأخبرت أختها بأنّ الستّ سوسن أعطتها مالاً ليست متأكّدة من أنّه سيكفي لشراء ما طلبت منها شراءه.

”الستّ أعطتني خمسين ألف ليرة حتى إشتري خضار وفواكه، انشالله يكونوا كافيين“.

أجابتها ماري بأنّه عليها أن تكون حذرة، لأنّ الستّ سوسن وأمثالَها لا ينتبهون إلى هذا الارتفاع المستمرّ في الأسعار: ”هيي ما بتنتبه لأنّو ما هيي بتشتري. من كم شهر خمسين ألف كانوا يكفّوا مونة أسبوع“.

”وأكثر من أسبوع!“ أضافت زينة.

”لازم دايماً تكوني منتبهة يا زينة“.

”عم تعلّميني؟“ أجابتها زينة. وأضافت:

”عم تعلّميني شو لازم إعمل؟ إنتِ انتبهي على بشرى وبسّ! ما مرّة سألتك عنها وجاوبتيني بالحقيقة“.

في هذه الأثناء، تُخلي سيّارةٌ موقفها، فتنزل ماري بسرعة دون أن تتأكّد من خلوّ الطريق، وتكاد أن ترتطم بها سيّارة توقّفت قبل لحظات منها ومن الباب، وعلا زمّورُها على الفور، وأطلّ السائق برأسه من الشبّاك وشتمها بغضب: ”يا حمارة!“.

تصرّفت ماري كأنّها لم تسمع شيئاً وكأنّها لم ترَ شيئاً، وذهبت فوراً لتقف في المكان الذي أُخلي لئلّا تحتلّه سيّارة أخرى. خاصّةً أنّ السير مزدحم، وليس من السهل على زينة أن تحرّك سيّارتها.

وإذا بسيّارة تحاول الوقوف ودفعَ ماري لتبتعد، لكنّ ماري تبقى صامدة لا تزيح. أصرّ السائق على دفعها فراحت في الصراخ حتى يسمعها العالم كلّه، وأطبقت زينة يدها على الزمور، وأطلّت رأسها في الوقت نفسه من شبّاك سيّارتها لتصرخ بالرجل أن يتوقّف عن محاولاته، واصفةً إيّاه بالوقح: ”شو هالوقح! صار إلنا ساعة ناطرين!“.

لكنّ الرجل ظلّ يشير إلى ماري بأن تبتعد، واصفاً إيّاها بالمجنونة: ”ابعدي يا مجنونة!“ كان يردّد.

وظلّ يقترب منها حتى كاد أن يلامسها، فلم تخف ولم تتراجع. فما كان منه إلّا أن ترجّل من سيّارته واقترب من ماري ليدفعها بيده، لكنّ زينة اقتربت منه بسيّارتها وهي تزمّر باستمرار، وكادت أن تصدمه، لكنّه لم يخف بل ظلّ واقفاً في مكانه، فتوقّفت زينة عن التقدّم لكنّها ظلّت تزمّر، حتى تجمهر بعض المارّة وخرج البعض من داخل محلّاتهم ليستطلعوا ما يجري... إلى أن تخلّى السائق أخيراً عن محاولاته.

ثمّ حرّكت زينة سيّارتها ونجحت في ركنها، وهي ما زالت تشتم، ليس هذا الرجل فقط، بل جميع الرجال الوقحين.

”ما بقى فيه حَيَا. جايي من آخر الدني تا يوقّف هون، قدّام بيوتنا!“.

قالت وهي تترجّل من السيّارة.

١٢

زينة وماري في البيت

رغم أنّ رَكن السيّارة يُتعب زينة أكثر ممّا يُتعبها العمل عند مخدومَيها، فقد شعرت بالارتياح عندما وجدت باب الشقّة مفتوحاً. فتحته لهما بشرى التي سبقتهما بدقائق في الوصول إلى البيت.

ابتسمت ماري عندما فتحت لهما بشرى ابتسامةَ النجاة، وأوّل ما بادرت به هو طمأنة ابنة أختها بأنّها شغّلت قنّينة الماء الساخن لحظة وصول الكهرباء، ونصحتْها بأن تصبر قليلاً حتى يسخن الماء جيّداً.

"اصبري بَعدْ شوَي حتّى تسخن المَيْ منيح".

وانصرفت بشرى، وهي تنتظر، إلى اختيار ما ستلبسه، ثمّ خلعت ثيابها ودخلت الحمّام، وفتحت حنفيّةَ الماء الساخن، الذي ما إن لامس جسمها حتّى أطلقت صرخةً قويّةً حادّةً، فهرعت إليها الأختان اللتان خالتا أنّ سوءاً عظيماً قد حلّ بها.

"المَيْ باردة!"، قالت بشرى وهي لا تزال تصرخ.

فأشعلت زينة زرّ إحدى اللمبات لتتأكّد:

"الكهربا مقطوعة!".

لم تدم نعمة "كهربا الدولة" طويلاً. هي عادةً تدوم ساعةً، وهذا كافٍ في الصيف، في شهر آب، ليسخن ماء القنّينة، لكنّها هذه المرّة لم تدم سوى القليل، كما تفيد بذلك درجة حرارة الماء. فما كان من بشرى إلّا أن لبست ثيابها الداخليّة على عجل، وعمدت إلى تسخين الماء بالطنجرة على الغاز، وهي تلعن الذين أذلّوا الناس والبلاد.

"الله يلعنهن، ذلّونا الله يذلّن!".

لقد دهمَها الوقت. فموعد المقابلة يقترب.

لكنّ المصيبة لم تقتصر على غياب الكهرباء فحسب، بل هي أيضاً في تحطّم تمثال العذراء مريم. عندما سمعت ماري صراخَ بشرى، أوقعت، وهي تنهض لنجدتها على عجل، تمثالاً للعذراء موضوعاً على طاولة صغيرة، فتحطّم.

انتبهت ماري وهي مسرعة أنّها أوقعت شيئاً لكنّ نجدة بشرى كانت أولى من الانصراف إلى أيّ شيء آخر.

بكت ماري لرؤية التمثال على هذه الحالة، وهي السبب في ذلك، واعتذرت للعذراء ورجتها السماح. رأت زينة في ذلك نذير شؤم، وقالت لأختها هذا يوم مشؤوم. وأخبرتها بأنّها كسرت فنجان الشاي الذي تحبّه الستّ سوسن وهي تضعه في مكانه على الرفّ. وها هي الكهرباء لم تدم إلّا القليل، وبشرى تجد صعوبةً في الاستحمام.

– ما في شي ماشي! الله ينجيّينا. الله يعطينا خير هالنهار!

– إنتي يا زينة متل البومة بتضلّي تنقّي وتنعي.

لم تجب زينة بشيء، بل جلست تساعد أختها في ترميم التمثال. لكنّ إعادة إلصاق أقسامه بعضها ببعض لم تنجح، فجاءت ماري بكيس ووضعت فيه كلّ أجزائه، على أمل أن تهتمّ بالأمر في وقت آخر، فالوقت الآن هو للاهتمام ببشرى، يجب أن تذهب لتجري المقابلة في أحلى هيئة، فعَرْضُ العمل هو في مؤسّسة تجميل، وليس في مكان آخر. يجب أن تكون في صورتها الفضلى.

اغتسلت بشرى ب"الكَيْلة"، واستعدّت بسرعة وخرجت.

هدأ الجوّ بعد خروج بشرى، وجلست ماري على الكنبة وفتحت ظرفاً وأخرجت منه عدداً من الأوراق النقديّة، وناولتها إلى زينة، قائلةً لها إنّ هذه هي حصّتهما من إيجار البيت في الضيعة.

– هيدي حصّتنا من بيتنا.

فسألتها زينة عمّن أتى بها:

– مين جابُن؟

– ابن خَيْنا العسكري، مرَأْ الظهر.

لقد مرّ ابن أخيهما المجنَّد في الجيش، وشرب فنجان قهوة، وأعطى ماري هذا الظّرف الذي جاء به من الضيعة، حيث أمضى يومَين في إجازة.

تناولت زينة الظرف وأخرجت الأوراق النقدية منه وعدّت: مئتا ألف ليرة! فوَلْوَتْ ورمت بالأوراق على الكنبة، كأنّها دنس تتخلّص منه حتّى لا يترك أثراً على يديها. إذ ما قيمة مئتي ألف ليرة الآن، وقد بلغ سعر صرف الدولار أكثر من ثمانية آلاف ليرة؟ قيمة الليرة صارت لا شيء، كورقة خريف، وقد ارتفع سعر كلّ شيء ارتفاعاً مجنوناً.

"ميتان ألف ليرة، ما بقا يساوُوا شي. اليوم الدولار بتمن تالاف. كيلو العدس بسبع تالاف ليرة".

معاش زينة الشهري لم يعد يساوي سعر خزّان سيّارتها من البنزين. زينة خائفة جدّاً، ففي رقبتها ابنتُها وأختُها. إنّها مسؤولة عن الاثنتين. لكنّ الستّ سوسن وعدتْها بأنّها سترفع أجرها الشهر القادم.

"قالت لي الستّ سوسن إنو رَحْ تعدِّلي إجرتي".

وطمأنتْها بأنّها لن تتركها للحاجة والعوَز:

"يساوينا ما يساويكي!"، قالت لي.

ماري التي كانت تسمع، ساهيةً، همَّ أختها، لم تعلِّق بشيء، لأنّ كلام أختها نقلها إلى البيت في الضيعة، وتمنّت لو أنّ أحداً يشتري حصّتها وحصّة أختها في ملكيّة البيت هناك، وما من أحد له مصلحة في ذلك سوى أخيهما الذي لا تسمح أحواله بعمليّة كهذه.

"يا ريت حدا بيشتري حصّتنا بهالبيت. خيّك ما معو، ما نو قادر".

كان كلام ماري مناسبةً لكي تُفرغ زينة ما في قلبها نحو أخيها الذي يُغمى عليه عمليّاً حين يسمع أن أحداً تقدّم لطلب يد بشرى من والدتها. لأنّه يحلم بأن تبقى حصّة أخته، بل أختيه، له ولأولاده، وهو يصرّح بذلك بلا مواربة ولا خجل، إذ إنّ "رزق" الوالد يجب أن يبقى للعائلة، والعائلة تعني عنده الصبيان دون البنات. يجب ألّا يذهب "رزق" العائلة للصهر.

"خيِّك ناطرنا أنا وياكي تا نموت، تا يْوَرِّتْ حصّتنا لَولادُو"، قالت زينة.

وقالت كذلك:

"ما شايفي كلّما عرف إنّو بشرى إجاها نصيب، بيقلّي بدّك تورّتي صهرك وتحرمي ولاد خيّك؟ رزق بيِّك وجدِّك لازم يضلّ بالعيلة".

ثم استدركت زينة وقالت إنّ الظروف التي تمرّ بها البلاد لا تسمح لأحد بالبيع ولا بالشراء. أمّا إذا حدثت أعجوبة وأراد أحد أن يشتري فإنّه يسدّد ثمن ما اشترى بشك مصرفي، لا يعطيك البنك قيمته، بل يحتفظ به ويسجّله لحسابك، كأنّك تملكين هواء. لا يمكن لأحد مثلنا ومثل الناس أن يُخرج مالاً من البنوك، إلّا أن يكون من ذوي النفوذ.

"بهالظروف، لا حدا بيشتري، ولا حدا بيبيع. وإذا حدا اشترى بيعطيكي تشيك عالبنك. بياخدو البنك، وما بيطلعلْنا شي. كأنّو معِك هوا. بهالإيّام ما بيطلّع مصريّات من البنوكي إلّا هالإيدُن طايلة. هودي هرّبوهن لبرّا. العَترة عالفقير".

١٣

المرأة الشابّة تَغسِلُ طفلها

الجوّ خانق في البيت، وضاغط وثقيل، والكهرباء مقطوعة والتبريد يستحيل.

تقدّمت زينة من شبّاك بيتها المطلّ على بلكون جارتها الأمّ الشابّة، فتحته بدَرْفَتيه. وقع نظرها على الأمّ الشابّة الجارة تضع طفلها في الماء، في حوض بلاستيكي على البلكون، لتحمِّمه، وهي تقول له مدلِّلةً: "غلّو... غلّو...".

وما إن استقرّ الطفل في الماء، حتّى نظر إلى "حمامته" فمدّ يدَه ليطالها، لكنّه فشل، وذهبت جهوده عدّة مرّات هباءً. لا يدرى الطفل أنّ صورة الشيء في الماء تختلف عن الأصل في الخارج. وكانت الأمّ الشابّة، عند كلّ محاولة من ابنها، تضحك حتّى تكاد أن تقع على الأرض من شدّة ما تضحك، من كلّ قلبها. وقد ضحكت زينة أيضاً من كلّ قلبها، وهي تتفرّج على الأمّ وطفلها التي قالت لها حين لاحظت وجودها على الشبّاك إنّ عيش هذه اللحظة وحدها، يستحقّ منها الحبل والإنجاب... فكيف بحبل وإنجاب من زوجها الذي تحبّه؟

"أحلى شي بهالدني لُوْلاد يا زينة. الله يرزق بشرى برجّال محترم، تحبّو ويحبّها. هيك الحياة بتحلى قد ما كانت صعبة".

"يا ريت!" قالت زينة. وأرادت أن تضيف شيئاً بخصوص بشرى، لكنّها عدلت وقالت: "الله يحميلِك هالصبي الحلو، والله يخليكن لبعضكن".

١٤

الانفجار

ما كادت زينة تنهي عبارتها حتّى اهتزّ كوكبُ الأرض قاطبةً!

اهتزّ بصَمْت، بلا أن يُصدر صوتاً.

كأنّ الأصوات اختفت من الوجود لحظةَ اهتزّت الأرض. وقد اهتزّ البيت، واهتزّ المبنى، واهتزّ الحيّ، كأنّ ذلك في حلم مرعب.

وتبعتْ هذا الزلزال الصامت أصواتٌ هائلة من الزجاج المتحطّم والمتساقط والمتهاوي، بحيث أنّ الزمان امتلأ بها.

ثم يسود الزمان صمت رهيب.

شعرت زينة بأنّها عاجزة عن التنفّس، وبأنّها تختنق، وتحايلت على نفسها حتّى لا تنهار وحتى لا تقع على الأرض، وقد طالت هذه اللحظة حتّى خافت من أن تطول معاناتُها إلى الأبد.

هذا هو الأبد، ظنّت زينة.

هذا هو أبد الآبدين الذي يكثر الكلام عليه في الكنيسة كلَّ يوم أحد. ثمّ إنّ قوّةً شدّتها يميناً، وقوّةً شدّتها يساراً، ثمّ غابت عن الوعي.

لقد انقلع باب الشقّة من مكانه، وسقط على زينة، وغطّاها حتّى لم يبقَ منها بادياً إلّا بعضُ قدميها.

لم ترَ زينة ما حدث في تلك اللحظة المزَلزِلة الصّامتة. ولم تدرك ما جرى.

١٥

ما لم ترَهُ زينة

لم تُدرك زينة أنّ الكون انفجر.

انفجر الكونُ مرّةً ثانيةً، بعد أن انفجر أوّلاً إذ كان فراغاً ونشأ من هذا الانفجار الوجود. أمّا هذه المرّة فقد انفجر الوجود وتحوّل إلى فراغ وعدم. تحوّل الوجود إلى هيولى، إلى فوضى ما قبل الخلق.

لم ترَ زينة شيئاً.

لم ترَ زينة سحابةً عظمى ملأت بيروت. ولم ترَ مبانيَ بالآلاف تتهاوى وتنهار على أصحابها. ولم ترَ بشراً تتقطّع أجسادُهم بألواح الزجاج أو يختفون أحياء تحت الأنقاض.

١٦

ما لم تَرَهُ زينة أيضاً

لم ترَ زينة ما حلّ بالأمّ الشابّة وبطفلها.

اختلط صوت ضحكِها فجأةً، بأصوات تطايُر الزجاج، وعَبَرَ في اللحظة ذاتها لوحُ زجاجٍ، وفَلَقَ طفلها الذي بين يديها فَلقَتين، وشقّه قسمَين.

لم تستوعب الأمّ ما جرى.

وكيف لها أن تستوعب ما جرى، وبات الرأس بين يديها والجسد منفصلاً عنه، والماء قد تحوّل أحمرَ دماً، فأنكرت ما رأت، وارتعبت، ولم تُدرك، ولم تَعِ، ولم تستوعب، ولم تملك قراراً، فنفضت يديها ممّا فيهما، وبدا لها أنّها رمت ما يشبه رأساً بشريّاً، فنهضت تستطلع، وهالها ما شاهدت. قد شاهدت رأساً يهوي فوق المدينة، ولم تستطع تحديد المكان الذي استقرّ فيه بعد أن تدحرج. وصاحت إذ أدركت:

"ماما!".

"ماما!" صاحت المرأة الشّابة من أعماق أحشائها.

وعادت إلى المغطس لتراه مملوءاً بالدم، وبشيء لا يشبه سوى الرعبِ والحقيقة.

"ماما!" ردّدت المرأة الشابّة، ودماء ابنها تُعمي عليها البصيرة.

لم ترَ زينة ذلك الطفل ولم ترَ والدته. ولم يبلغها ما حلّ بهما، ولم ترَ الزوجَ ترك عمله وأسرع ليتفقّد زوجته وابنه، لكنّه لم يتمكّن من الوصول، لأنّ المنطقة كانت أشبه بفوضى ما قبل إنشاء المنطق في كلّ شيء، وقد تدمّتْ قدماه من المشي فوق جبال الزجاج، ونزف حتى اصفرّ لونُه وانهار وظنّ المسعفون أنّه مائت لا شكّ.

ولأنّ زينة استقرّت تحت الباب مغمياًّ عليها، لم ترَ الحائطَ ينهار على رسّام الـ"غرافيتي" ويقتله. طمره الركام بالكامل. يبدو أنّه قُتِل فوراً لحسن حظّه. أو أنّه بقي حيّاً لا يعرف ما جرى له، ولا يعرف ما جرى، ولا ينتظر أن يُسعفه أحد، لأنّه لا يعي أنّه مصاب وأنّه ينزف... إلى أن مات.

كان الرسّام منصرفاً إلى كتابة عبارة يتلفّظ بها طفل وتقول: "هنا بَيْلُوت!" بدل "هنا بيروت". وقد استبدل اللام بالراء، لأنّ الأطفال يلفظون الراء لاماً.

ولم ترَ زينة كيف شقّت دفوفُ الزجاج الساقطة من أعالي البنايات، رؤوس الناس وأجسادهم.

هذا شاب يُغرق الدم لحيته الشابّة.

وعلى الصبيَّتَين اللتين كانتا على الرصيف تنهار واجهة من زجاج وتطمرهما وتقتلهما.

ومبنى بكامله يتهاوى على العمّال الذين يرمّمون واجهته، ويطمرهم جميعاً فلا يعود يبين منهم شيءٌ، فاختفوا من هذا الوجود كأنّهم لم يكونوا. كأنّهم لم يزوروه.

لم يتسنَّ لزينة أن ترى كلّ هذا الدمار. أبنية بكاملها تنهار على من فيها، وعلى من ليس فيها.

لا تدري زينة أنّنا في عصر حضارة الزجاج، التي تَروِّج للشفافية. لم تنتبه زينة إلى أنّ البنوك جميعها من واجهاتٍ زجاج، تسمح للمارّة جميعاً بأن يَرَوا ما في الداخل. لا شيءَ خفيّاً إذاً في شؤون المال. كلّ شيء واضح ويمكن رؤيته بالعين المجرَّدة من الخارج. الشفافية عدوّة الفساد.

والشفافيّة عدوّة الشكّ طبعاً، وقد انتقلت إلى البيوت. شقق البنايات الحديثة ينفجر فيها ضوء النهار، لأنّ حيطانها زجاج ما حملت بنيةُ البناية الزجاج. أشعّة الشمس تنفجر في داخل الشقق، وتُبين كلّ شيء، فلا سرّ يخفيه سكّان البيوت الحديثة ولا وسخ ولا دنس. الشمس تطهّر كلّ شيء.

لم تدرِ زينة أنّ زجاج الشفافية والطُّهر انهار على الناس جميعاً، وقتلهم قتلاً همجيّاً يندر مثيله.

حين مرّت زينة بسيّارتها أمام باب المستشفى، ورأت الممرّضةَ الشابَّةَ واقفةً أمام بابها، وسمعت صوت سيّارة الإسعاف، لم تدرك ما سيحلّ بهذه الشابّة الجميلة، ولم تُدرك ما سيحلّ بوالديها.

لم تشهد وصول والدَي الشابّة إلى المستشفى فورَ وقوع الانفجار.

كان والدها في السيّارة مع والدتها، آتيَيْن ليُقِلّاها إلى البيت. هذه عادةٌ اتّخذاها بعد انهيار الليرة وارتفاع الأسعار. يمرّان بابنتهما بعد انتهاء عملهما، فيوفّران أجرة النقل عليها، ولو كلّفهما ذلك ساعةً من الوقت.

توقّفت السيّارة فجأةً، مع الانفجار، وامتلأ الشارع بالركام. لم يتردّد الوالد لحظةً بعد أن تخطّى الوهلةَ الأولى، وأدرك أنّ دماراً حصل، فترجّل من السيّارة بسرعة كالطير، ولحقت به زوجتُه بعد حين قصير.

دخل الوالد إلى المستشفى فوجدها مدمَّرةً. وجدها خَراباً، وكان ذلك أعظم عليه من أن يُعْقَل. لكنّه بغريزة بهيميّة سعى إلى ابنته في كلّ الزوايا والممرّات، فوجدها على حمّالة تعتني بها زميلة لها محَجَّبَة. فأسرع إليها بما استطاع من سرعة، سائراً على كُوَم الزجاج، وعلى محتويات المكان المحطّمة.

كانت الزميلة محتارةً لا تدري كيف تغطّي وجهَ زميلتها حين رأت الوالد مسرعاً نحوها، إذ كيف تجد غطاءً في هذا الخراب؟ فخلعت ثوب التمريض وألقته على الزميلة قبل بلوغ والدها الحمّالة بلحظة. لكنّ ثوب التمريض لم يغطِ كامل جسد القتيلة، غطَّى الرأس والجذع فقط، وبقي النصف الآخر بادياً وما زال ينزف ما تبقّى فيه من دماء، فما كان منها إلّا أن رفعت حجابها وسترت به ما بقي بادياً.

ركع الوالد فوراً عند قدمَي ابنته، ركع على الزجاج، ولم يشعر بألم ولا بالدم ينزف من ركبتَيْه. وراح يصرخ راجياً إيّاها بصوت صاعق أن تستفيق:

”جَنَى..! ردّي عَ بَيِّكْ يا جَنَى!“.

وإذا بصوته يهزّ المستشفى، ويتساقط زجاج كثير بفعل قوّته، وتتهاوى أبواب متهاوية، وأبواب لم تتهاوَ بعد، وتتهاوى شبابيك متهاوية، وشبابيك لم تتهاوَ بعد.

ثمّ يعمّ صمتٌ تامّ، مطلق، للحظات.

ثمّ يطلب الأب الذي لا يزال عند القدمين الحافيتين لابنته القتيلة، وعند أظفار رجليها المطليّة بلون الورد، يطلب من الله أن يأخذه هو بدل ابنته، لأنّه بلغ من العمر الستّين، وقد عاش ما يكفي:

”يا ربّ إذا بدّك تاخد واحد من عيلتي خدني أنا. أنا عمري ستين سنة. اتركها وخدني“.

وكانت الممرضة تجيبه بأنّ الوقت الآن بات لطلب الرحمة وحسب:

”الله يرحمها، هلّأ اطلبلها الرحمة“.

وحين أحسّ بأنّ عودتها إلى الحياة باتت مستحيلة، رجا الله حينذاك، رجاءً حارّاً، بأن يهتمّ بها في انتظار أن يصل هو شخصيّاً لعندها:

”يا الله، إذا ما بدّك تخلّصلي ياها، بطلب منّك شغلة واحدة، اهتمّلي فيها تا كنت أنا وصلت لعندها“.

وفجأةً، ينفجر صوت الوالدة التي وصلت متأخّرةً قليلاً عن زوجها، وأدركت فوراً أنّ الأمر قد قُضي، وأنّ ابنتها ماتت، فصرخت بصوت هَدَّ ما كان لا يزال قائماً في المكان:

”ماما..!“

ثم أسرعت نحو لوح زجاج بقي قسم منه صامداً في درفة شبّاك، وحين بلغتْه صرخَت بأقصى ما تختزن نفسُها من قوّة:

”بدّن يقتلونا، رح نحنا نقتل حالنا، ونريّحن منّا!“.

وحزّت على بقيّة اللوح رقبتَها، ناحرةً نفسها.

١٧

بيت زينة من جديد

زينة التي بدأت تستعيد وعيها، تحت الباب، لم تشهد كلّ ذلك إذاً. ولا أختها ماري التي كانت تتأرجح ما بين الوعي والغيبوبة.

زينة تحت الباب، وماري "غائبة". لم يبقَ شيء على شيء في البيت. البرّاد متكوّم على بعضه، منكمشٌ كخِرقة عُصِرَت. التلفزيون، الغسّالة، الغاز. أواني الطعام على الرفوف.

ليس بركاناً ما حدث. أعظم من ذلك. ليس زلزالاً ما حدث. أعظم من ذلك. قصف بالطيران، انفجار صهريج مليء ب"تي أن تي"، قنبلة عظمى تطايرت شظاياها بسرعة هائلة في كلّ اتّجاه. كلُّ ما يسبّب كارثة عظمى يمكن أن يكون قد وقع!

تحوّلت نوافذ الشقّة إلى مستطيلات فارغة.

امتلأت أرض الشقّة بالخراب.

صار المكان في زمان آخر.

ماري الجريحة، على المقعد، تئنّ من وجعها، تنزف من وجهها وكلّ جسمها. تمسك يدها اليسرى التي قشرها الزجاج بيدها اليمنى شبه السليمة.

أصابها الزجاج المتطاير من الشبّاك الكبير، المطلّ على الشارع، بالقرب من "شركة الكهرباء" في منطقة مار مخايل، التي يفصلها الطريق العريض، الأوتوستراد، عن المرفأ.

يرنُّ هاتف زينة الجوّال. يرنّ طويلاً. يتوقّف. ثمّ يرنّ مرّات عديدة، رنيناً عصبيّاً، دون توقّف، فتحرّك يدها كأنّها انتبهت من غيبتها... لكن ليس تماماً.

تنتبه ماري من وَهْلَتِها على هذا الرنين. تفتّش بعينيها عن أختها، تناديها وهي تجول بنظرها على هذا الدمار: "زينة!".

لكنّ زينة لا تجيب.

ثم تكرّر ماري بين كلّ أنّة وأنّة مناداتها: ”زينة! زينة أختي! أختي!“.

فتجيبها زينة وكأنّها لا تجيب، بصوت واهن مشوّش.

وانتبهت ماري وهي على هذه الحالة إلى أنّ الشقّة خراب. لا باب، ولا شبّاك، ولا برّاد، ولا شيء.

بل إن الحائط وراء مقعدها، انهار وسقط داخلَ شقّة الجيران. لم تصدّق ما رأت: الحائط سقط على الجارة.

وَلْوَلَتْ!

أرادت أن تبادر لنجدة الجارة تحت الردم. أن تقوم بشيء ما. لم تستطع أن تتحرّك كما يجب، لأنّ قطع الزجاج التي عليها والمحيطة بها من كلّ جانب، تنغرز فيها كلّما تحرّكت.

ثمّ، بعد عدّة محاولات، استطاعت أن تستدير بالكامل، لتقع عينُها على زوج الجارة مُدمّىً، يقترب من زوجته ويحاول رفع الأنقاض عنها، لكنّه يتهاوى ويسقط على لوح زجاج مسنّن. ينغرز اللوح في عنقه، فيصبح كأنّه مرفوع عليه قصداً، كما يَرفع الأعداء رؤوس أعدائهم على رؤوس الرماح.

ماري، يرهبها ما رأت. يختفي صوتها من الخوف وهول الصدمة. تغمض عينيها وتدير رأسها نحو داخل شقّتها، ثمّ تفتحهما ليقع نظرها على قَدَمَيْ أختها خارجتَين من تحت الباب، فراحت تولول من جديد وتستنجد بالسيّدة العذراء: ”يا عدرا!“.

ثمّ تنادي أختها والجيران:

”زينة... يا جيران“.

وتمطّ ماري بصوتها وهي تنادي أختَها والجيران. وتمدّ بصوتها كأنّها ترفع أختها بهذه الطريقة من تحت الركام.

لكن هذا لا ينفع، فالصوت ليس رافعةً، ولا هو كاليدين. اليدان رافعة. اليدان السليمتان.

وماري عاجزة عن النهوض من مكانها، لترفع الباب عن أختها، مهما حاولت.

وطال الوقت، وبدأ صوتُها يتلاشى، وبدأت تستسلم لقدَر تجهل ما قد رَسَم.

١٨

ماري تُنصِت إلى ما يجري في الخارج

بعد أن استسلمت ماري لقدرها، أغمضت عينَيها، وراحت تتمتم إحدى الصلوات التي تتلوها ساعاتِ التخلّي، وراحت تُنصت إلى ما يجري في الخارج: صراخ، عويل، أصوات زجاج يتهاوى، أصوات زجاج يُزال، أصوات سيّارات إسعاف، بكاء أطفال، مناداة، استفسار.

أصوات فرادى ومتقاطعة: – تلفِنْ للصليب الأحمر. بيَّك نشّف دمّو!

– نزّل إختك.

– علي عم تسمعني؟

– بهيّة ماتت خلص.

– أمّك ما عم تردّ ع تلفونها. آ. عم بيرنّ.

– ما بينفات ع البناية. المدخل خربان. كلّو ردم.

– هيدا قصف طيران.

– انتحاري.

استطاعت ماري أن تلتقط هذه العبارات، من هذا الجوّ الجهنميّ في الخارج. قد أتَت الساعة. ساعة الدينونة.

ثم بدأت بالبكاء، لكنّ دموع النساء المتقدّمات بالعمر ليست غزيرة، تكاد دموع الواحدة منهنّ أن تبلغ بصعوبة أوسط مجرى الأنف.

١٩

زينة تستعيد وعيها

وفي هذا الجوّ الجهنّمي، الذي دام ساعةً من الزمن ودهراً من الخوف والهلع، يرنّ هاتف زينة من جديد، بالطريقة ذاتها، رنيناً عصبيّاً مُلِحّاً. فحرّكت يدها. بانت يدها من تحت الباب. أرادت الوصول إلى الهاتف، لكنّها لم تستطع. نادت: "ماري!".

انتبهت ماري إلى أنّ أختها تناديها وإلى أنّها تحرّك يدَها، فنادت بدورها: "زينة!".

وجاءتها الحَمِيّة وحاولت النهوض، مرّةً أخرى، واستطاعت أن تبلغ بيدها أختَها، وأَنْ تحاول مساعدتها للخروج من تحت الباب، لكنّها عجزت.

الباب الذي رمى أختَها على الأرض، وقع طرفُه على طاولة صغيرة قرب المقعد، وهذا ما منعه من أن يحطّم رأسَها.

حظٌّ زينة كبير، نجّتها الطاولة الصغيرة من الموت.

استعادت زينة وعيَها، لكنّها ظلّت عاجزةً عن أن تسحب نفسها من تحت الباب. فطلبت من أختها أن تطلب العون من الجيران: "نادي الجيران يا ماري، عَيْطِي عَ حدا يشيل عنّي هالشي الواقع عليّي".

لكن ماذا في استطاعة ماري أن تفعل؟ ماري عاجزة، وزينة لا تدري مدى الدمار الذي حلّ بالبيت، وبالأرض قاطبةً وهي أسيرة تحت هذا الباب.

٢٠

وصول الإنقاذ

بعد مضيّ وقت طويل لا شكّ، والأختان على هذه الحالة، تحاولان ولا تنجحان، وصلت بشرى وهي تلهَث، ودخلت من الباب الذي لم يعد باباً، وقد رأت هذا الدمار الذي لم يُوْحِ بعدُ بالكلمات التي تعبّر عنه وبالكلمات التي تصِفُه.

بشرى التي ترتدي بنطلون "دجينز" وتيشرت بيضاء، و"تنس شوز".

بشرى الصبيّة الفخورة بجسدها، بدت كأنّها بلا جسد ولا فخر ولا لون. بشرى صاحت من أعماقها مناديةً والدتَها وخالتها: – ماما! خالتو ماري!

فردّت عليها والدتُها على الفور:

– بشرى! يا ماما شيليلي هالشي الواقع عليي. خلّصيني يا ماما.

وبلا أن تضيِّع لحظة واحدةً، تقفز بشرى فوق هذا الخراب وتبدأ فوراً بتخليص والدتها.

وفي هذه اللحظات، يصل شبابٌ متطوّعون، مبادِرون من تلقاء أنفسهم، ينتعلون أحذيةً سميكة، مقاوِمةً للزجاج، تشبه تلك الّتي ينتعلها متسلقّو الجبال. أطلّوا من الفراغ الذي كان باباً، ونادى أحدهم يعرض المساعدة: – حدا بدّو مساعدة هون؟

فأجابتْه زينة غيرَ مصدِّقة:

– أنا هون، أنا هون. دخيلكن أنا هون.

زينة بحاجة إلى الكثير من المساعدة، وابنتها بشرى بمفردها لا تكفيها. لكنّ بشرى تتابع عملها كأنّها لم تسمع شيئاً لشدّة ما كانت مأخوذة بما تقوم به.

ويتقدّم مسعفان ليساعداها. أمّا المسعف الآخر فيذهب لمساعدة ماري.

"أنا هون. عالأرض. ما بعرف شو واقع عليّي"، كرّرت زينة كلامها.

"أنا معك يا ماما، أنا معك"، تدخّلت بشرى مطمْئِنةً والدتها.

"ما تخافي يا عمتي"، أجابها أحد المسعفين، "وصلنا. شفناكي".

ثم نظّف أحد المتطوّعين المقعد من قِطَع الزجاج، بمكنسة كانت معه، وجاءت بشرى بمنشفتَين من الخزانة المحطّمة، ونفضتهما جيّداً من كِسَر الخشب والزجاج معاً، ووضعتهما على المقعد، وأُقعِدَتْ الوالدة وأختُها عليهما، حتى لا تغرز في جسدَيهما كِسَرُ الزجاج.

زينةّ أذتها الصدمة أكثر ممّا أذى جسدَها الانفجار.

وبينما كان المتطوّعون، ومعهم بشرى، يُسعفون الأختَين، ويُزيلون من الركام ما إزالته ضرورة قصوى، رنّ هاتف زينة من جديد، ففتّشت عنه بشرى ناحيةَ الصوت في جزدان الوالدة.

بشرى تتعجّب إذ تقرأ الاسم والرقم على الشاشة: "جاد"، والرقم ١ وهو رمز هاتف الولايات المتحدة.

"جاد، جاد، من أميركا". قالت بشرى لوالدتها وهي تناولها الهاتف.

تعرف بشرى بالتأكيد من هو جاد، وتعرف أنّه ابن مخدومَي والدتها، لكنّها تعجّبت إذ هو يتصل في هذه اللحظة وفي هذا الظرف بالذات. لذلك فتحت مكبّر الصوت قبل أن تناول الهاتف إلى الوالدة.

مدّت زينة يدها بسرعة وتناولت هاتفها. هي أيضاً لم تنتظر هذا الاتصال وفي هذه اللحظة.

وقبل أن تقول زينة "ألو" جاء صوت جاد مضطرباً قائلاً إنّه عبثاً يحاول الاتصال بوالديه: – زينة، أنا جاد أنا جاد، عم إحكيكي من سان فرنسيسكو.

زينة لم تجب. بقيت كأنّها "غائبة"، لكنّها مستمِعة.

– صار لي فترة عم تلفن لأهلي ما حدا منن عم يردّ. اللي صار عندكن هوّي انفجار هائل يا زينة، بالحروب ما صاير متلو، ولا بمحلّ عالكرة الأرضيّة صاير متلو. نحنا بالشركة هون عم نتابع لحظة بلحظة شو عم يصير عندكن. دخيلك يا زينة روحي شوفيلي شو صار بأهلي.

فأجابته زينة باقتضاب شديد، وبكلمتين فقط لا غير، أجابته بأنّها ذاهبة فوراً:
– يَلّا رايحة.

وإذا بزينة تنهض فوراً وتتناول جزدانها وتخرج، دون تفكير ولا تردّد، كأنّها ورقة طيّرها الهواء في اتجاه الخارج. أو بالأحرى كأنّها الوفاء يأبى الخذلان.

الوفاء المطلق.

وقالت وهي تحاول التقدّم، بصعوبة قصوى، بأنّ غيابها لن يطول، وبأنّها ستعود فوراً، وذلك حتّى لا ينشغل بالُ ابنتها وأختها عليها: – راجعة، ماني مطوّلة.

لم تكن زينة تدري ما ينتظرها في الخارج. لأنّها في الحقيقة وإن تكن واعية فهي غير مدركة. إنّها غير مدركة لما جرى، لكنّها ستدرك... أو ربّما! فما جرى ليس من المدرَكات التي يتميّز بها البشريّون. إنّ إدراكه ليس مُعطىً كما هو معطىً إدراك أشياء الحياة العاديّة أو النادرة.

لم تُجب ماري بشيء، بل نظرت إلى أختها وهي تخرج، كأنّها لم تسمع ما قالته. عيناها ضائعتان، فارغتان، تنظران في لا شيء.

أمّا بشرى فحاولت تنبيه والدتها إلى غرابة سلوكها:

– ماما لَوين؟ ما فيكي تُوْصَلي. وْبَعدك ما صرتي منيحة.

لكنّ الوالدة لم تأبه لهذا القول، بل أجابت:

– الله ما بيتركني.

وأمّا المسعفون الشباب، فاثنانِ منهم تركا الشقّة ليقدّما المساعدة إلى الساكنين في الطوابق العليا، وقد أعلما رفيقهما الذي يهتمّ بجروح ماري بذلك: "نحنا طالعين عالطوابق اللي فوق" قالا له، "الحقنا لمّا بتخلّص".

٢١

زينة تطلب المساعدة

لكنّ زينة تجد صعوبة قصوى في الخروج من مدخل البناية، لأنه مليء بأنقاض الحيطان المهدّمة وبقايا ألواح الزجاج. فنادت ابنتها لتطلب منها المساعدة: – بشرى، بشرى...

– شو يا ماما؟

– تعي ساعديني يا ماما، ماني عم أقدر خلّص حالي، مدري شو صاير هون. خرباني الدني.

فتستجيب بشرى لنداء والدتها، وتخرج لتساعدها على الخلاص من مدخل البناية، ثم ترافقها إلى السيّارة، وهي تقول لها: – يا ماما ما فيكي تُوْصَلي. ما شايفي بعينك؟

٢٢

ما لا يُدركه العقل

الضوء في المنطقة، هو ضوء ما قَبْلَ غروب الشمس وما قَبْلَ عتمة المساء. ضوءٌ أقربُ إلى اللّين والانحسار.

زينة وبشرى تجولان بناظريهما، فلا تقعان على السيّارة، وتجولان بناظريهما على المكان المحيط، وتَريان ما لا تصدّقه العين ولا يدركه العقل. ثمّ إنهما تُصدَمان حين انتبهتا إلى أنّ السيّارة ممعوسة تحت أكوام الزجاج.

زينة وابنتها تتقدّمان نحو السيّارة، وتسيران على أكوام الزجاج والأنقاض، وكلّ شيء ما زال يتهاوى من وقت لآخر، والزجاج بخاصّة.

ثمّ تبلغ زينة بمساعدة بشرى مكان السيّارة.

زينة تُوَلْوِل.

تحاول يائسةً بمساعدة ابنتها إزالة حطام الزجاج عن السيّارة. لكنْ عبثاً تحاولان. ولمّا أعيتهما المحاولة والحيلة، قرّرت زينة أن تذهب مشياً على القدمين. فقالت لابنتها: – أنا رايحة مَشي.

وإذ تراها بشرى تبادر بالسير نحو بيت مخدومها على قدميها، راحت تثنيها عن ذلك: – يا ماما ما فيكي تُوصَلي، ما شايفي الدني كيف؟

فأجابتها زينة غيرَ مقدِّرة فداحة الأضرار، ولا الصعوبات التي ستجابهها: – الله بيدبّرني.

لكنّ بشرى تأبى إلّا أن تلحق على الفور بوالدتها، آملةً بأن يدفع ذلك والدتَها إلى أن تُعيد النظر في قرارها.

– ماما أنا جايي معك. ما فيكي تُوصَلي وحدك.

– لا يا بنتي، إنتي ارجعي اهتمّي بخالتك.

– خالتي حالتها مش خطرة. والشَبّ عم يهتمّ فيها.

ولمّا تحقّقت بشرى من إصرار والدتها، استسلمت لعنادها، وسارت إلى جانبها لتساعدها حيث تعثّرت.

٢٣

على طريق الوفاء

الطريق الفرعي الذي اتخذته زينة وبشرى، كان مليئاً بجبال من العوائق التي لا يحدّها عقل ولا تحدس بها حاسّة. زجاج وزجاج وزجاج، وأنقاض وأشجار وأعمدة ويافطات، ومحتويات المحلّات والبيوت.

وكلاب وهِرَرَة.

وأقفاص عصافير لا تشبه أشكالها.

محطّة بنزين بكاملها على الأرض. السقف ملتصق بالأرضيّة. وما زال البنزين مشتعلاً، لكنْ على بُطء، كأنّ القسم الأكبر من خزّانها قد انفجر واحترق ولم يبقَ منه إلّا القليل.

وصبيّة مطمورة بالزجاج على الرصيف، لا أحد يستطيع أن يحزر ما إذا كانت حيّةً أو ميّتة، وإلى جانبها جريحة من عمرها جالسة تمدّ يدَها كتمثال يسأل مساعدةَ القدَر. كأنّها تستعطي نجدةً من يُنجِد من بشرٍ أو غيبٍ أو فراغ.

”ما رح نقدر نوصل يا ماما“ قالت بشرى بعد أن رأت ما رأت.

”لازم نوصل يا بنتي“، أجابت زينة وأضافت: ”الله ما بيتركنا!“.

٢٤

سَمَك يسعى إلى الماء

وبينما كانت زينة تشجّع بشرى على التقدّم، ينسكب فجأةً من أحد الطوابق محتوى أكواريوم من ماء وسمك، وتندلق أمام زينة وابنتها أسماكٌ حيّة، تصارع الموت، وتذهب مضطربةً لتختفي في زوايا الخراب.

تجفل زينة وابنتها، وتلوذ الواحدة بالأخرى، وتتوقّفان عن السير لحظةً، ثم تتقدّمان لكنْ بصعوبة، بضعَة أمتار فقط، فينسكب أمامهما ماءُ أكواريوم آخر من أحد الشقق، وتندلق معه، على جريح يستعطي النجدة وجروحه فاغرة، أسماكٌ حيّة تصارع الموت هي أيضاً، وتسعى إلى الماء فتلج هذه الجروح، وتلعق دمَها، وتحاول الغوص ما استطاعت لتختفي فيها.

لقد وجدت الأسماك المتهالكة خلاصها في جروح هذا الرجل المستعطي النجدة هو أيضاً من قوّة ما.

زينة وابنتها تجفلان أيضاً وأيضاً، وتحتميان ببعضهما.

– ماما، قلتلِّك ما رح نقدر نوصل، خلّينا نرجع.

– لازم نوصل يا بنتي الله ما بيتركنا.

٢٥

لا تراجع

وإذ تتقدّم الأمّ وابنتها أمتاراً قليلة، تمرّ أمامهما عشرات الجرذان خارجةً من أفواه المجارير، جاريةً مسرعةً نحو شابّة جريحة تنزف تحت أكوام الزجاج.

تتغلغل هذه الجرذان من خلال الثقوب المُتاحة، حتى تبلغ الصبيّة، وتروح تلعق جروحها بنهم الخائف من نشاف الينبوع.

ارتعبت الأمّ وابنتها لمّا رأتا هذه الجرذان تحيط بالشابّة من كلّ جهاتها، وتغلّفها من رأسها حتّى أظفار رجليها الجميلتين المطليَّتين بلون الأمل، فلا يعود يبين منها شيء على الإطلاق.

٢٦

طيرٌ أسطوري

أسرعت زينة وابنتها الخطى لتتجاوزا هذه الكوابيس التي لا يمكن لعقل أن يستوعبها.

شعرتا بالراحة قليلاً إذ لم تقعا، مسافةَ أمتار، على هذه المآسي التي لا يوجد مثلها في كتاب. وقع نظرهما، في هذه الأثناء، على أشياء لا تجعل رؤيتُها الجوفَ يضطرب، على كتبٍ مدرسيّةٍ، مثلاً، منتشرةٍ على مساحة أمتار، يبين على إحدى صفحاتها مبنى مستشفى مدمّر من الحرب العالميّة الثانية. ومرّتا قرب مجلّة مفتوحة على صفحة عليها صورة لكارثة تشيرنوبل.

لكنّ هذا الانخفاض في التوتّر لم يدم، إذ إنّ طيراً كبيراً، أسطوريّاً، بحجم سيّارة، مُغبَرَّ اللون مُعتِماً، يحطُّ أمامهما وهو ينازع، فيقطع عليهما الطريق، فتجفلان وتختبئ الواحدة بالأخرى، وتتراجعان بضعةَ أمتار. والطير يتململ ويحاول أن يطير ولا يستطيع.

زينة وبشرى ترتجفان عند كلّ محاولة، وتحاولان الاختباء في مكان ما، في انتظار أن يهدأ الطير لتتابعا الطريق، لأنّ التراجع لم يعد ممكناً، إذ قد غاب هذا الخِيار. فإمّا التقدّم وإمّا التقدّم. فانتظرتا قليلاً وهما في حيرتهما القصوى، لا تعرفان ما تنتظران ولا ما ينتظرهما.

وإذا بهذا الطير يهدأ ويسكن جامداً بلا حراك، فتشدّان العزم، وتعاودان التقدّم.

والتقدّم يعني العبور فوقه، إذ لا سبيل آخر على الإطلاق. وعند اقترابهما منه واستعدادهما للقفز فوقه، ترعد السماء بقوّة، مرّةً ومرّتين وثلاثاً، رعداً مدمِّراً كلَّ مرّة. كلُّ رعدة كأنّها قنبلةٌ عظمى.

زينة وبشرى تتسمّران في مكانهما.

وعند كلّ رعدة ينتفض الطير فيعلو قليلاً عن الأرض كأنّه ينطلق من جديد، ثم يعود إلى مكانه.

وعند كلّ رعدة تتساقط قطع من الباطون، وألواحٌ من الزجاج، وأغراض البيوت من المباني المحيطة.

ثمّ ينهمر المطر فجأةً بغزارة.

ينهمر المطر حِبالاً.

لكنّ المطر هذا لم يكن مطراً كما نعرفه منذ أنْ كان الزمان، بل هو مزيج من رذاذ من ماء ورذاذ من زجاج.

سيول من هذا المطر المزيج تُغرِق الشارع.

في هذا الجوّ المنبئ بأنّها السّاعة قد أتت، سعت زينة وبشرى لشيء تحتميان به، فَوَجدتا لوحاً من كرتون تظلّلتا به، وتابعتا تقدّمَهما بلا تردّد وعبرتا.

لكنّهما وهما تعبران أرعدت السماء رعدةً عظمى، فانتفض الطير وأطاح بهما وألقاهما على الأرض، فوَلْوَلَتا، وظنّتا أنها النهاية، لكنّهما استجمعتا قواهما ونهضتا وتابعتا السير تحت وابل المطر المنهمر حبالاً، متظلّلتَين بلوح من ورق أو خشبة أو كرتون. أو بما تيسّر.

ثمّ تضعف قوّة المطر شيئاً فشيئاً.

وفي مكان ما من الطريق، والدمار كارثيّ، والاثنتان محتميتان بما وقعت عليه اليد، راحت بشرى الخائفةُ منتهى الخوف، تتطلّع يميناً ويساراً لئلّا يفاجئها عدوانٌ من جهة ما، فقالت لها زينة:

”اطَّلعي قدامك، ما تطّلعي لَبعيد، ما تطّلعي لا يمين ولا شمال. تطلّعي وين لازم تحطّي إجرك بسّ“.

بعد قليل تنظر بشرى إلى يمينها فترى رجلاً مسلوخ الجلد كحيوان ذُبح للأكل وقد أُزيل جلده. كأنّ أحداً سَلخَ جلده ليتلذّذ بتعذيبه، فنادت والدتها قائلةً وهي على وشك أن تتقيّأ وأن تُفرِغ أحشاءها:

”ماما، ماما، اطّلْعي شوفي!“.

فأجابتها زينة بنبرة غضب ولوم، ناهيةً إيّاها مرّة أخرى عن النظر إلّا حيث تطأ قدمُها:

”قلتلّك اطلّعي وين لازم تحطّي إجرك بسّ!“.

٢٧

الوصول

بلا لون ولا هيئة تصل زينة وبشرى إلى مدخل البناية التي تقصدانها. المدخل محطّم، وباب المصعد محطّم، وأنين بَشَرِيّ يكاد ينطفئ صادر من داخل دهليز المصعد.

أنينٌ يُدمي القلب، وليس في اليد حيلة على الإطلاق! ومع ذلك حاولتا رغم عجزهما، أن تمدّا يدَ المساعدة، لكنّ المصعد عالق بين طابقين.

زينة المنهَكة من التعب، تحاول الجلوس لكن على المكان طبقة سميكة من حطام الزجاج، ولا فسحة فيه مناسِبة، فتجلس على جزدانها. ثمّ تتنبّه إلى أنّ رجليها مدمّتان، فتستعين بابنتها: – شوفي يا ماما إجريّي كلّن دمّ.

وانحنت الابنة تعالج جراحَ والدتها بما تَيَسَّر: كلينكس، محرمة، طرف الفستان...

ولمّا رأت بشرى أنّ كلّ هذا لا يكفي، عمدت إلى خلع قميصها ومسحت به الدماء النازفة من جروح والدتها. بشرى تلبس "تي شورت"، تحت قميصها الذي لا تبكّله.

ثم اقترحت على والدتها أن تصعد هي بمفردها لتفقّد الستّ سوسن وزوجها، وأن تنتظرها الوالدة حيث هي: – ماما، خلّيكي إنتي هون، وأنا بطلع إستفقدهن.

وافقت زينة على هذا الاقتراح، وترضّت على ابنتها شاكرةً لها مروءَتها: – الله يرضى عليكي يا بنتي. قولِيلُنْ أمّي ما قدرت تطلَع. إجْرَيْهَا كلّن دم.

لكنْ ما إنْ تخطو بشرى بعض الخطوات، حتى تناديها زينة.

– لا يا حبيبتي، لا، ما تطلعي وحدك.

– ماما...

– لا، لا حبيبتي، رح إطلع أنا وياكي.

ولمّا رأت بشرى إصرار والدتها على الصعود، رغم ما بها من جروح في قدميها، عادت لتساعدها على النهوض والتقدّم.

٢٨

صعوداً إلى المُنتهى

وبينما الأمّ وابنتها تصعدان، كانتا تشاهدان ما لا يمكن إنسان أن يتصوّره: الدرج إلى الطوابق العليا مليء بعوائق لا يمكن تخطّيها.

”بَلاكِ كيف كنت بدّي إتدبّر؟“ قالت زينة لابنتها التي كانت تزيل بهمّة الشابّة الفتيّة ما يعترضهما من عوائق.

وإلى جانبَي الدرج أبواب الشقق مخلّعة تسمح برؤية الداخل الذي تصدر منه أصوات تُسمَع بوضوح بلا أن تبدو أصحابُها.

وفي أحد الطوابق، رأتا داخل إحدى الشقق، هرّةً تسقط من مكان عالٍ لم تستطيعا تبيّنَه، وتلفظ أنفاسها الأخيرة في مشهد مقلق.

وفي طابق آخر، سمعا صوت طفل ينادي أمّه، وهو يبكي بكاءً واهناً متلاشياً: ”ماما...“.

فانطلقت بشرى بشكل تلقائي، ودخلت الشقّة، تاركةً والدتها تتدبّر أمرها بمفردها، وسعت باحثةً عن مصدر الصوت، لكنّ والدتَها راحت تصرخ بكلّ قواها، لتمنعها من أن تتابع تقدّمها.

لم يمنع بشرى صراخُ والدتها من متابعة البحث عن مصدر صوت الطفل المنطفئ، بل منعتها جبال العوائق والدمار.

وقد عادت وهي تبكي وتشهق بالبكاء.

”سدّي دينَيكِ يا ماما، سدّي دينَيكِ، وما تطلّعي إلّا قدّامك“، قالت لها والدتها بعتب وغضب.

٢٩

التعب يُخطئهما الشقّة

ولأنّهما تعبتا كثيراً لا شكّ، فقد دخلتا شقّةً أخرى غير الشقّة المقصودة.

”غلطنا، ما هيدي شقّتُن!“ قالت زينة عندما تنبّهت إلى خطئها.

وبعد أن صعدتا عدّة درجات، إذا بهاتف زينة يرنّ من جديد، فتتناوله من جزدانها: ”زينة وين صرتي؟“.

”هيدا جاد“، قالت زينة موجّهةً كلامَها لابنتها.

”يَلا يَلا رَحْ نُوصَل. جايي أنا وبشرى بنتي“.

٣٠

بلوغ الهدف

وأخيراً تصلان.

تقف زينة لاهثةً في الفراغ الذي كان باباً، ووراءها بشرى لاصقةً بها، مختبئةً بها. محتميةً بها.

أمّا الباب الخشبيّ السميك، الذي يَشِي بغنى صاحبه، فلا وجود له، أو ربّما هو هذه البقايا الخشبيّة على سفرة الدرج.

تقف زينة في الفراغ الذي كان باباً، ومزيج من المشاعر بادٍ عليها. وأكثر ما هو بادٍ عليها الغياب. بشرى الواقفة وراءها تمتنع من النظر إلى الداخل لئلّا ترى من الهول ما قد يُفقدها الوعيَ.

عندما تنبّه الأستاذ فيصل إلى وصولهما، بادرهما فوراً بالقول: "ماتت!".

قال "ماتت!" فقط.

لم يُضف شيئاً على هذه الكلمة المفردة التي قالها بصوت واهن وبلا أن ينظر إليهما صراحةً. أحسّ بوجودهما من دون نظر.

أمّا زينة فَـ"مُنْتَقِلَة". إنّها في عالمٍ عاجزة عن إدراكه. عيناها فارغتان.

أمّا بشرى فصامتة وراء والدتها، كأنها تُخفي وجودها.

وقعت قطع الزجاج على الستّ سوسن وقتلتها. هذا ما استنتجتاه مما رأتاه.

الستّ سوسن مطمورة بالزجاج.

نجا الأستاذ فيصل، لكنْ عليه جروح كثيرة دون نزيف غزير.

والاثنان جالسان على كنبة مريحة أمام التلفزيون.

التلفزيون محطّم. مجعلك. كأنّه علكة بصقها عالكٌ غاضبٌ متوتِّر. كأنّ قنبلةً شافطة انفجرت فيه.

الأستاذ فيصل على كرسيّه، بلا حول ولا قوّة. الريموت ما زال في يده.

زينة لا تعلّق بشيء على قول الأستاذ فيصل بأنّ الستّ سوسن ماتت. تبقى واقفة. لا تنطق بكلمة.

بشرى مختبئة دائماً وراءَ والدتها، لا تجرؤ على حركةٍ ولا على صوتٍ ولا على ظنٍّ ولا على يقين.

٣١

الأستاذ فيصل يُشغِّل التلفزيون

في هذا الجوّ المُهيب الغريب اللامعقول... يحرّك الأستاذ فيصل يده، ويوجّه الريموت نحو التلفزيون المحطَّم، ويكبس على زرّ التشغيل، فتضيء الشاشة، ويصير التلفزيون في كامل هيئته، يعود جديداً، كأنّه مُشترىً للتَوّ.

في هذا المكان المدمَّر، حيث الستّ سوسن جثّة على كنبة، وزينة غائبة في فراغ الباب، وراءها ابنتها كأنّها لا شيء في لا مكان، والأستاذ فيصل على كرسيّه صامت ومكسور الخاطر، مدرِكٌ لما يجرى غير منتبه، أو منتبهٌ لما يجرى غير مدرك. أو ليس منتبهاً ولا مدركاً...

الأستاذ فيصل وعيٌ غامض...

في هذا المكان المدمَّر، كلّ شيء موجود وجوداً تامّاً في الذهن، لكنْ لا شيء في الواقع المرئيّ يشبه ما في الذهن والذاكرة.

تضيء شاشة التلفزيون إذاً، وتتوالى عليها المشاهد.

لكنّ المَشاهد لا تُرينا ما حدث وما يحدث، وليست نقلاً مباشراً، بل تُرينا ما سيحدث في المستقبل القريب والمستقبل البعيد. كأنّ هذه المشاهد تنقل تَصَوُّرَ الأستاذ فيصل لما سيكون بخصوص هذا الانفجار العظيم. كأنّ المستقبلَ حقيقةٌ واقعةٌ يشاهدها بعينَيه.

فالمشهد الأوّل الذي يَظهر على الشاشة هو مدينة بيروت عند وقوع الانفجار، وفي الأيّام التي تلت الانفجار... يُرينا مدينةً منكوبة في فوضى لا توصف، تتدبّر أمورها بما تيسّر.

بعد ذلك تُظهِر الشاشةُ الرئيس الفرنسي آنذاك، إيمانويل ماكرون، يزور منطقة الجمّيزة المنكوبة القريبة من المرفأ، ويزور المرفأ المنكوب، ويُستقبل

استقبالاً حماسيّاً لم يَنعَم بمثله زعيمٌ محلّي. يشكو له الناس همومَهم وغضبهم من هذه "المنظومة الحاكمة"، وهو يستمع استماع من يخبّئ مفاجأةً مُنَجِّية.

ماكرون يُستقبَل استقبال المخلِّصين!

ماكرون يضع كِمامة لأنّنا ما زلنا في زمن الكورونا.

الأستاذ فيصل يتابع ما يجري على الشاشة، بلا أن يظهر على وجهه شعورٌ بالرّضا أو بالزعل. ينظر وحسب. لا يُفاجَأ بشيء ممّا يشاهده. ينظر بوجهٍ غائب.

ثمّ يظهر على الشاشة شابّات وشباب متطوّعون يزيلون الأنقاض، ويساعدون المتضرّرين بحماسة شديدة وحميّة زائدة.

أمّا المشهد الذي بدا كأنّه أثار نوعاً ما اهتمام الأستاذ فيصل، فهو الذي يُظهر سيّارة على الأوتوستراد، قرب المرفأ، فيها أربع فتيات شابّات، كلّ واحدة منهنّ تحمل مِكنسة طرفُ عصاها خارجٌ من الشبّاك.

تتوقّف السيّارة على الرصيف، وتترجّل منها الشابات الأربع بلباسهنّ الرياضي المُبْدِي خطوطَ أجسامهنّ، ويتّجهن نحوَ أحد الشوارع للمُشارَكة في إزالة الأنقاض ومساعدة المتضرّرين.

عند هذا المنظر، تتوقّف السيّارات لتفسح للفتيات مجالاً للعبور، ثم تُطلق زماميرها تحيّةً بلا توقّف، ويترجّل ركّابها ويقفون مصفّقين بحماسة ما بعدها حماسة، كلّ ذلك فخراً واعتزازاً وتشجيعاً.

بعد هذا المشهد المؤثّر، تعرض الشاشةُ كلماتٍ وتصاريحَ للمسؤولين الكبار المدنيّين والدّينيين.

ثم تعلن المذيعة في أثناء إحدى نشرات الأخبار:

"القاضي فادي صوّان المُكلّف بالتحقيق في جريمة المرفأ، يُجبَر على الاستقالة...".

الأستاذ فيصل ينظر إلى الشاشة بعينين مُطفَأتين، كأنّه ينظر ولا ينظر، كأنّه يتابع ولا يتابع.

ثمّ تقرأ المذيعة عناوين الصحف:

عنوان جريدة الأخبار: ”تنحية صوّان: عفو عن السياسيين!“

عنوان جريدة النهار: ”تنحية القاضي صوّان... صرخة العدالة الضائعة!“

ثمّ تقرأ المذيعة عناوين الصحف مرّة ثانيةً، وصباحَ يوم آخر:

عنوان جريدة النهار: ”لبنان... تعليق التحقيق في انفجار مرفأ بيروت للمرّة الرابعة“

عنوان جريدة الأخبار: ”تحقيقات المرفأ: جريمة بلا مجرم!“

ثمّ يظهر على الشاشة مقطعٌ لأهالي الضحايا يرسُمون صُوَر ضحاياهم على الجدار المحيط بالمرفأ.

٣٢

هاتف زينة من جديد: إنّهم يلعبون!

في هذه الأثناء يَرُنّ هاتف زينة التي ما زالت مسمّرة في الباب ووراءَها ابنتها.

لا تتناولُ زينة هاتفها لكي تجيب. كأنها خائفة... فبماذا تجيب؟

لكنّ الهاتف لا يتوقّف عن الرنين، بل يستمرّ طويلاً دون انقطاع... إلى أن يَخْرُجَ منه صوتُ جاد المتّصل من سان فرنسيسكو في الولايات الأميركية المتّحدة.

يخرج الصوت من الهاتف دون أن يَمَسَّ الهاتفَ أحد، ثم يقوى هذا الصوت بقوّة وينتشر حتّى يحتلّ كلّ بيروت.

يقول الصوت:

– حاطّين قنبلة ذريّة بنصّ المدينة! عم يلعبوا يا زينة، عم يلعبوا. مفكّرين حالن كبار، مفكّرين حالن عم يصنعوا التاريخ!

ويرافق صوتَ جاد منظرٌ مأخوذ من فوق بيروت، يجول بنا على الشوارع والساحات، والمباني، والمساجد والكنائس، والآثار القديمة. صوتٌ عظيم يملأ فضاء المدينة.

ويتبع هذا الصوتَ الأسطوريَّ المَهيب، مشهدُ انفجار المرفأ، بالصوت والصورة.

هذه أوّل مرّة يسمع الأستاذ فيصل صوتَ الانفجار متلازماً مع الصورة.

٣٣

إحياءً للذكرى

ما زال الأستاذ فيصل أمام التلفزيون، ما بين الغافي والمستيقظ.

التلفزيون الآن ينقل مراسمَ إحياء ذكرى "٤ آب" في إحدى المدارس، حيث تُلقى كلماتٌ بالمناسبة.

خلف المنبر يافطة مكتوب عليها بخط أحمر كبير: **كي لا ننسى**

يعلن مقدّمُ الحفل أنّ الكلمة الآن هي للآنسة لونا منصور.

تعتلي المنصّة فتاة، طالبة لا شكّ، وتقرأ كلمتها.

تقول مقدِّمةً كلمتها:

– كنت عم عزّل بالجمّيزة مع رفقاتي، بعد الانفجار، فتراءى لي هذا المشهد:

طيفُ آب

لمحتُ طيفاً في مرآة سيارةٍ مُهشَّمة، حسبتهُ ميّتاً. خُيِّل إليّ أنّه طيف شهيد كتَم الانفجارُ أنفاسَه، فرَحل. رأيتهُ باسِطاً يدَهُ نحوي، وكأنه يبحث عمّن ينتشلُ بَقَاياه من الرُّكام.

لا أعرف من هذا الذي لمحتُه، لم أُميِّز ملامح ذلك الوجه. لكنني أدركت تعب صاحبه، وهالَني اصفرارُ وجنَتَيْه، والدّمعُ الّذي أطفأ بريق عينيه.

أقلقني هذا الطّيفُ الّذي لمحتُ، بدا كأنهُ رأى الموت بعينيْه، فانطفأ.

لمحتُه منعكساً على زجاج سيارةٍ مُهشَّمة، على رصيفٍ في أحد شوارع بيروت المَنسيّة. وحين تمعّنت النّظر، ميّزتُه. إنّه طيفي يُلملمُ حطام روحي، والزّجاج.

بعد انتهاء الصبيّة من إلقاء كلمتها، ظهر على وجه السيّد فيصل ما يشبه الابتسامة.

ثمّ تلت هذه الكلمةَ كلمةٌ أخرى لفتاة شابّة: **إنكار**

هذه القصيدة ليست عن انفجار الرابع من آب
هذه القصيدة عن حال الطقس والهواء
عن القطط والموسيقا وأيّام الصيف الحارّة
عن الحياة والحبّ والأمل
عن زحمة طرقات الأشرفيّة
عن صخب ليالي مار مخايل
عن أزقّة بيروت وشبابيكها
عن أيّ شيء آخر كان قد حدث ذلك النهار
عن الكوسا بلبن
لكن
هذه القصيدة ليست عن الدّمار والموت والخيبة
ليست عن انتحار الأمل
ليست عن انفجار الرابع من آب.

الأستاذ فيصل يصارع رغبته في النوم، ويَجْهَد حتّى يُبقي عينيه مفتوحتين.

٣٤

ليتَه حدثَ في فصل الشتاء

يُظهر التلفزيون أخيراً فتى يهمس في أذن صديقه: – يا ريت كان الانفجار بالشتويّة، كنّا ربحنا يوم عطلة.

فيقع كلامه في أذن والدته التي تغضب وتنهره قائلةً: – يا عيب الشوم عليك!

تقول ذلك وهي تصفعه بكفّ يدها على خدّه صفعةً هي أقرب إلى محاكاة الصّفع منها إلى الحقيقة.

٣٥

الابتسامة الأخيرة

يبتسم الأستاذ فيصل ابتسامة سخرية من القدر، ثمّ يغفو. ويظهر وجهه مالئاً الشاشة، غافياً، مُطفَأً، أو ربّما ميّتاً، فجروحه عديدة وفي كلّ مكان من جسمه.

وفي هذه الأثناء تعرض الشاشة الانفجار العظيم، مرّةً ثانيةً، بالصّوت والصّورة أيضاً.

النّهاية

حول الكتاب

نبذة

الرّابع من آب 2020.
ينزلق فنجان الشّاي من مكانه ويقع.
"انكسر الشرّ"، تعلّق الستّ سوسن.
ثمّ يسقط تمثالٌ لمريم العذراء ويتحطّم.
"الله يعطينا خير هالنّهار"، تتمتم زينة.
لكنّ الشرّ في ذلك اليوم لم ينكسر والخير لم يأتِ.
بل إنّ ما حدث مع المرأتين كان نذيراً بكارثة آتية.
سينفجر الكون.
سينفجر ثانيةً...

عن المؤلف

رشيد الضعيف كاتب وروائي لبناني.
من إصداراته عن دار الساقي: 'الأميرة والخاتم'، 'خطأ غير مقصود'، 'هرّة سيكيريدا'، 'تصطفل ميريل ستريب'، 'أوكي مع السلامة'، 'ألواح' (جائزة وزارة الثقافة اللبنانية للرواية، 2017). تُرجمت أعماله إلى أكثر من 14 لغة.